

أشهر القصص

كامل كيراني

جَلِيقَرُ



الرحلة الثالثة

في الجزيرة الإيطالية

DUDARAB



دار المعارف

كامل كيلاني

أشهر القصص

جَلِيقَةُ

الرحلة الثالثة
في الجزيرة الطيارة

الطبعة الثالثة عشرة



دار المعارف

مقدمة

أيها الصبي العزيز :

قرأت الرّحلتين : الأولى والثانية من هذه القصة الممتعة الساحرة بشغفٍ وشوقٍ لا مثيلَ لهما ، وكان لك في قراءتهما أبلغُ درسٍ وأبدعُ تسليةٍ ، كما كان لك في خيالِ القصةِ وعظائِها بهجةٌ وعبرةٌ . وأنا أوصيك أن تُعيدَ تلاوةَ ما قرأتَ مرّةً بعد أخرى ؛ فإنّك واجدٌ من المتعة والعظاتِ ما يُنيرُ طريقَ الحياةِ ويكشفُ لك أخلاقَ الناسِ وحقائقهم المستورةَ عنك . وسرى — كلما تقدّمتُ بك السنُّ — معاني جديدةٌ لم يكن لك بها عهدٌ .

ولقد كنتُ أحرصُ — أشدَّ الحرصِ — على تعرّفِ رأيِكَ فيما قرأتَ من هذه القصةِ ، وأثروهِ في قلبِكَ ، بعدَ أن عرفتُ رأيَ غيرِكَ ، واطمأنتُ إليهِ .

فلما رأيْتُكَ تتعجّلُ بقيّةَ القصةِ وتلجُّ في طلبِها إلحاحاً متواصلاً ،

أَيْقَنْتُ أَنَّ هَذِهِ الْقِصَّةَ الرَّائِمَةَ قَدْ وَقَعَتْ مِنْ قَلْبِكَ بِحَيْثُ قَدَّرْتُ لَهَا ،
وَرَأَيْتُ فِي سُورِكَ وَرِضَاكَ أَحْسَنَ مَكَافَأَةٍ لِي عَلَى مَا بَدَلْتُ فِي تَرْجُمَتِهَا
مِنْ جُهْدٍ وَعَنَاءٍ .

وَحَسْبِي جَزَاءٌ عَلَى هَذَا الْعَمَلِ الْمُضْنِيِّ الشَّاقِّ أَنْ أَرَى هَذِهِ الْقِصَصَ
السَّاحِرَةَ تَفْتَحُ ذَهْدَكَ لِمَا تَنْطَوِي عَلَيْهِ مِنْ حَقَائِقِ الْحَيَاةِ وَغَيْرِهَا وَمُثُلِهَا
الرَّائِعَةِ ؛ لِئَسْهَلَ عَلَيْكَ أَنْ تُطَبِّقَهَا عَلَى مَا تَرَاهُ مِنْ أَمْثَالِهَا فِيمَنْ
تَعْرِفُ وَتُصَاحِبُ ، وَفِيمَا تَرَاهُ مِنَ الْحَوَادِثِ الَّتِي تَقَعُ أَمَامَ عَيْنَيْكَ فِي
مُسْتَقْبَلِ أَيَّامِكَ السَّعِيدَةِ (١) .

كامل كيرك



(١) نُبِتْ مَقْلَعَةُ الطَّلِيعَةِ الْأُولَى كَمَا أُبْتَغَاهَا فِي الطَّلُوعَاتِ السَّابِقَةِ

في سفينة جراحاً آخر ، واثنين من المعرّضين ، وقد اختارهم جميعاً
للمعاونتي في عمل ، ووعدني بمصاغف الأجر الذي كنت أقتاضه
من قبل .

٢ - جواز السفر



ولما كان واقفاً من خبرتي ومراتي على
السياحات البحرية جعلني رباناً مُساعداً له ،
ووكيلاً نائباً عنه ، وأُسرني بلطفه الجَمِّ
وأذيه العالي . ورأيت رجلاً شريف النفس ،
صادق القول ؛ فأنر في نفسي أيما تأثير ،
وأجبتُه إلى طلبته ، وكنتُ - على ما تعرضتُ له
من الأحوال والشدائد في رحلتي السابقتين - مشفقاً بالأسفار .

وكانت القصة الوحيدة التي تعرضني ، هي الحصول على إذن من زوجتي
بالسفر ، وكنتُ أخشى ألا تأذن لي بذلك ، ولكنها - على العكس
مِمَّا قَدَرْتُ - قد ارتاحت إلى هذا الاقتراح ، لما يصبیه أولادنا من فائدة .

الفصل الأول

الرحلة إلى لابونا

١ - دوايبي السفر

لم يمرّ على رحلتي الماضية عامان حتى جاءني الربان غليوم
روبنس ، وكان ربان سفينة « الرجاء الصالح » التي تحمل ثلثمائة
طن . وقد كنتُ - من قبل - طبيباً جراحاً في سفينة هو ربانها ،



وسافرتُ بنا السفينة إلى
الشرق ، فاتخذني الربان
له صدقاً ، بل جعلني
بمنزلة الشقيق . فلما علم بودني جاء يزورني ، وأبدي سُروره وابتهاجه
إذ ألقاني على صحبة حسنة ، وأعرب لي عن اغترابه القيام برحلة
إلى الهند الشرقية بعد انتهاء شهرين .

وقال : إنه ليسرّه أن أكون طبيب سفينة وجراحها ، وذكر أن

وَأَعْيَبْنَاهَا رِيحٌ صَرَصَرَتْ هَبَّتْ عَلَيْنَا مِنَ التُّرْبِ .

٤ - لُصُوصُ الْبَحْرِ

وفي اليوم العاشر تَأَثَّرْنَا سَفِينَتَانِ مِنْ سُفْنِ لُصُوصِ الْبَحْرِ ، وَتَمَكَّنَتَا مِنْ إِدْرَاكِكُنَا ؛ لِأَنَّ سَفِينَتِي كَانَتْ قَبِيلَةَ الْأَحْمَالِ ، بِطَيْئَةِ السَّيْرِ . وَلَمْ يَكُنْ فِي وَسْطِنَا الدَّفَاعُ عَنْ أَنْفُسِنَا .

وَوَسَّلَ اللَّصُوصُ إِلَى سَفِينَتِنَا ؛ فَأَلْقَوْنَا مُنْتَطِيعِينَ عَلَى بَطُونِنَا ، وَكُنْتُ قَدْ أَمَرْتُ رَجُلِي أَنْ

يَضْلُوا ذَلِكَ لِتَأْمِنُوا أَذَانَهُمْ .

وَكَتَفُوا بَأْنَ عَدُوًّا وَنَاقَتَا ،

وَأَقَامُوا عَلَيْنَا مِنْ بَعْضِهِمْ حَرَسًا ،

ثُمَّ أَخَذُوا يَفْقَدُونَ السَّيْنَةَ .

وَقَدْ وَقَعَ نَظْرِي - مِنْ

بَيْنَهُمْ - عَلَى رَجُلٍ هَوْلَنْدِيٍّ

كَانَ يَظْهَرُ بَيْنَهُمْ بِالرَّعَامَةِ ،

فَلِنْ لَمْ يَكُنْ رَبَّنَاهُمْ .



٣ - فِي غُرُوضِ الْبَحْرِ

أَقْلَمْتُ بِنَا السَّفِينَةَ فِي الْيَوْمِ الْخَامِسِ مِنْ شَهْرِ أَوْغُسْطُسَ عَامَ ١٧٠٨ م ، وَأَذْرَكُنَا « سَان جُورِج » فِي أَوَّلِ أُبْرَيْلِ سَنَةِ ١٧٠٩ م ، وَلَبِثْنَا بِهَا ثَلَاثَةَ أَسَابِيعَ ، لِإِرَاحَةِ الْبَحَّارَةِ ، إِذْ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مَرَضَى .

ثُمَّ أَتَجَرْنَا إِلَى « تُونَكِين » حَيْثُ رَغِبَ الرُّبَّانُ فِي أَنْ يَقَعَ بِهَا ؛ لِأَنَّهُ لَنْ يَسْتَطِيعَ تَسْلُمُ الْبَضَائِعِ الَّتِي يَرِغِبُ فِي شِرَائِهَا إِلَّا بَعْدَ شَهْرٍ عَدِيدٍ .

وَلَكِنِّي يَصْرِفُ عَنْ قَبِيهِ سَأَمَ الْإِنْتَظَارِ ، اشْتَرَى سَيِّئَةً خَفَنَاهَا بِمُتَخَلِّفِ الْبَضَائِعِ الَّتِي يَتَجَرُّ فِيهَا أَهْلُ « تُونَكِين » عَادَةً مَعَ الْبِزْأَرِ الْمَجَاوِرَةِ ، وَجَلَّ فِيهَا أَرْبَعِينَ رَجُلًا مِنْهُمْ ثَلَاثَةٌ مِنْ أَهْلِ تِلْكَ الْبِلَادِ ؛ وَاسْتَخَّرَنِي لِهُذِهِ السَّفِينَةِ الصَّغِيرَةِ رُبَّانًا ، وَأَبَاحَ لِي أَنْ أَجُولَ بِهَا مَدَّةَ شَهْرَيْنِ ، رَشْنًا يَنْتَمُ أَعْمَالُهُ فِي « تُونَكِين » . وَزَرْتُ بِنَا ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ وَمَعْنُ تَجَارَ الْبَحَّارِ ، ثُمَّ هَبَّتْ عَلَيْنَا عَاصِفَةٌ شَدِيدَةٌ هَوَّجَتْنَا ، دَفَعْنَا مَدَّةَ خَمْسَةِ أَيَّامٍ إِلَى الشَّمَالِ الشَّرْقِيِّ ، ثُمَّ إِلَى الشَّرْقِ . ثُمَّ أَخَذَتِ الْعَاصِفَةُ فِي السُّكُونِ

وقد أدرك هذا الرجل حقيقة أمرنا، وعرف بلادنا، ثم كلّمنا
بلغة قومه، قائلاً: إنه سيكثّر ظهور بعضنا إلى ظهور بعض،
وقد نفّس بنا إلى الماء.

ولما كنت أجيد اللغة الهولندية، صرّخت له بأمرنا وحالتنا،
واستخلفت بالذين الذين يتجمّع بيننا، ويحقّ الجوار والإنتلاف، أن
يكون وسيط خبير لدى الرّبان.

ولكنّ رجائي هذا قد زاد من نورة نفسي؛ فعلاً واشتطّ في
تهديده ووعيده، والنفت إلى زملائه، وقال لهم باللغة اليابانية
كلاماً لم أفهم منه شيئاً يذكر.

هـ - خطأ جيل

وكانت السفينة الكبيرة - للصوم البحر - تحت إمرة رّبان ياباني
يتحدث قليلاً باللغة الهولندية. وقد جاءني هذا الرجل، وطرح عليّ
عدة أسئلة أحببته عنها بخضوع وتواضع، ثم أكّد لي أن حياته
باقية؛ فشكرت له شكرًا جزيلاً، وأنتيت عليه أطيب التّناء، والنفت

إلى الهولندي، وقلت له: «إني وجدت في عابد الأصنام والتّجّوم
ما لم أجده فيك، وأنت الرجل المتدين المتأله!»



على أنني تدبّرت
على تسرّعي بهذا
القول؛ لأن الرجل
أخذ يملح على رّبان
السفينةين بوجوب
إلقائي في الماء؛ فلم
يجبه إلى طلبه،
نظراً للمهذّب الذي
قلّقه على نفسه.
وكلّ ما أجازه له
هو أن يُعاملني
أشواً معاملة؛ فاملني بما حبّب إلى التّوّن.

ثم أخذوا بعض رجال سفينة الصنيرة ، وفرقوهم على سفينتهم ،
وأجروا طائفة منهم في سفينتي .

٦ - في زورق صغير

أما أنا ، فقد أخذني الموصوف إلى زورق صغير ذي شراع ، وجاهوني
بمؤونة أربعة أيام ، ثم أمر الربان الياباني بزيادة المؤونة لتكفي
ثمانية أيام ، وجعل هذه الزيادة من مؤونته الخاصة به ، ولم يأخذ
لرجاله أن يفتشوا .

وزلت إلى الزورق ؛ فأنهال على الهولندي بأفخس السباب ،
ومفزع القول ، مما فاض به لسانه الشيط ، ووعاء طبعه الشرير .
وقبل ساعتين من مشاهدتي سفينتي القرصان ، كنت أمخر الياءة
بزورق حتى وصلت إلى الدرجة الأربعين غرباً ، والدرجة ١٢٣ طولاً .
ولما ابتدئت عن هذه ، أبصرت بجمهور عدة جزائر في الجنوب
البري ؛ فنشرت الشراع ، وكان الجو حسناً ، وكانت غايي إمدادك
أقرب جزيرة ، وأيقنت أنني سأخل بها بعد ثلاث ساعات ، إذا بذلك

من الجهد ما يكفي . ثم قدحت زناد بُدُقيتي ، وأشعلت - من
شراره - النار في أعشاب يابسة جمعتها من الجزيرة ، وأنصبت عليها
بيضات قليلة أهدى بها ، سنناً بما بقي عندي من مؤونة أخيرص عليها
جهد استطاعتي .

وقضيت ليلتي عند هذه الصخرة ، إذ رقدت على الأعشاب ،
ونمت مستريحاً مستلماً إلى سبات عميق .

٧ - في جزيرة نائية

وأقلمت في اليوم التالي إلى جزيرة ثانية ، ومنها أبحرت إلى جزيرة
ثالثة ، ثم إلى رابعة ، مستعيناً بمجاويف سفيني الصنيرة .
ولا أطيل على القارئ ، وحسبي أن أقول إنني في اليوم الخامس
أشيت إلى جزيرة واقعة في الجنوب الشرقي في نهاية تلك الجزائر .
وكانت هذه الجزيرة أبعد مسافة مما كنت أخصب ، ولم أستطع
الوصول إليها إلا بعد خمس ساعات . ودرت حولها بزورق أملاً أن
أعدي إلى المكان الصالح لإثاء مراسي فيه .

وَهَبْتُ أَرْضَ الْجَزِيرَةِ مِنْ خَلِيجٍ صَغِيرٍ يَلِغُ اتِّسَاعُهُ ثَلَاثَةَ أَمْثَالِ زَوْزِي ، وَرَأَيْتُ أَنَّ الْجَزِيرَةَ كُلَّهَا لَيْسَتْ سِوَى صَخْرَةٍ كَبَبَتْ فِي أَجْزَاءِ مِنْهَا حِثَّائُ طَيْبَةِ الرَّائِحَةِ .

٨ - يَأْسُ جِلْفَر

وَبَدَ أَنْ تَأُولْتُ مَا قَلَّ مِنَ الطَّامِ ، أَخَذْتُ شَيْئًا مِنَ الْمَرْطَبَاتِ ، وَوَضَعْتُ الْبَاقِيَ فِي إِحْدَى مَنَاقِرِ الْجَزِيرَةِ ، وَهِيَ كَثِيرَةٌ .
وَقَدْ وُضِعَتْ إِلَى الثُّورِ عَلَى عِدَرٍ مِنَ التَّبْيِضِ خِلَالَ الصُّخُورِ ، وَاقْتَطَعْتُ قَدْرَ ٣ مِنَ الْأَعْشَابِ الْبَحْرِيَّةِ وَالْحَشَائِشِ الْجَافَةِ ، لِأَشْعِلَهَا فِي الْفَدَاكِ بِشَرَارِ بُدْقَتِي وَفَتِيلِ مِشْكَلِي الْقَوِيِّ ، وَأَنْضِجَ عَلَيْهَا التَّبْيِضَ .
وَبِتُّ طَوْلَ اللَّيْلِ فِي الْكَهْفِ الَّذِي وَضَعْتُ فِيهِ الرِّادَ ، وَجَلَسْتُ مَوْطِنِي - فِي الرِّقَادِ - تِلْكَ الْحَشَائِشِ الْجَافَةِ الَّتِي جَسْتُ بِهَا . وَلَمْ يُعَذِّنِي النَّوْمُ إِلَّا قَلِيلًا ؛ لِأَنِّي كُنْتُ مُتَمَلِّئًا هَمًّا لِمَا أَنَا فِيهِ مِنْ قَسَرٍ وَإِعْيَاءٍ .
وَرَأَيْتُ أَنَّ النُّوْمَ مُخَفِّقٌ فِي هَذَا التَّكْنَانِ الْقَفَرِ الْمُنْتَزِلِ ، وَتَسَلَّطَ عَلَى هَذَا الْوَهْمِ - وَكَانَ الضَّمْفُ قَدْ نَالَ مِثِّي - وَعَاطَيْتُ كَثِيرًا فِي

اسْتِجْمَاعِ قُوَّتِي ، حَتَّى خَرَجْتُ مِنَ الْكَهْفِ فِي وَسْطِ النَّهَارِ ، وَكَانَ الْجَوْ صَخْرًا ، وَالشَّمْسُ تُرْسِلُ أَشِعْمَتَهَا الْعَارَّةَ قَوِيَّةً ، حَتَّى قَدْ اضْطَرَرْتُ أَنْ أَتَقَبَّهَا بِخَنِي ظَهْرِي .

٩ - الْجَزِيرَةُ الطَّيَّارَةُ

وَلَكِنْ أَقْتَمَ الْجَوْ فَجْأَةً ، وَتَقَلَّبَ - كَمَا دَتِهِ - بِاعْتِرَاضِ سَحَابَةٍ كَثِيفَةٍ فِي الْأَفْقِ ؛ فَوَجَّهْتُ إِلَى السَّمَاءِ بَعْدَ أَنْ كُنْتُ قَدْ أَوْلَيْتُهَا ظَهْرِي ؛ فَإِذَا بِي أَرَى شَكْلًا مُسْتَدِيرًا كَالْمَعِينِ ، مُتَحَرِّكًا أَمَامِي ، مُتَقَلِّبًا هُنَا وَهَنَكَ . وَكَانَ هَذَا الْجِسْمُ الْمُتَمَلِّقُ فِي الْفَضَاءِ عَلَى ارْتِعَافِ مِائَتَيْنِ قَرِيبًا - كَأَبْدَالِي -



قَدْ حَجَبَ عَنْ بَاصِرَتِي لَسْوَةُ الشَّمْسِ زُهَاهُ سِتِّ دَقَائِقٍ أَوْ سَبْعٍ . وَلَمَّا دَنَا هَذَا الْجِسْمُ مِنَ الْمَكَانِ الَّذِي أَنَا فِيهِ ، أَلْقَيْتُهُ ضَلْبًا مَتِينًا ، مُتَبَسِّطَ الْقَاعِدَةِ ، مُتَجَمِّعَ الْأَوْصَالِ ، يُرْسِلُ عَلَى الْبَحْرِ صَوْبًا .
وَوَقَعَتْ فِي مَكَانٍ يَرْتَعُ وَيَأْتِي خُطْوَةً عَنِ سَطْحِ الشَّاطِئِ ؛

فَرَأَيْتُ هَذَا الْجِسْمَ يَهْبِطُ حَتَّى سَارَ مِنْ عَلَى قَيْدِ أَلْفِ خُطْوَةٍ .
وَهَا تَنَاقَلَتْ مِجْهَرِي ؛ فَكَشَفَ لِي عَنْ وُجُودِ عَدَدٍ كَبِيرٍ مِنْ
الْأَشْخَاصِ مُتَحَرِّكِينَ ، يَتَخَصَّصُونَ إِلَيَّ بِأَبْصَارِهِمْ ، وَيَتَطَلَّعُونَ بَعْضُهُمْ
إِلَى بَعْضٍ .

فَبَدَأْتُ عِنْدِي حُبَّ الْحَيَاةِ وَالْإِحْظَافِ بِالْقِيَاءِ بَعْضَ الشُّعُورِ بِالشُّرُورِ ،
وَقَوِيَّ آمَلِي فِي أَنَّ هَذَا الْمَظْهَرَ قَدْ يُتَقَدَّرُ مِنْ الْحَالَةِ الْمُخْزِنَةِ
الَّتِي أَنَا فِيهَا .

وَلَا يُمَكِّنُ أَنْ يَخْطُرَ لِلْقَارِي أَنْ مَا شَهِدْتُهُ إِنَّمَا كَانَ جَزِيرَةً سَابِغَةً
فِي الْفَضَاءِ ، وَفِي مَقْدُورِ الْأَشْخَاصِ الَّذِينَ يَهَا أَنْ يَرَفَعُوهَا أَوْ يَهْبِطُوهَا
بِهَا ، وَأَنْ يُسَيِّرُوهَا كَيْفَ يَشَاءُونَ .

١٠ - فِي الْجَزِيرَةِ الطَّيَّارَةِ

وَلَمَّا كُنْتُ لَا أَذْرُكُ هَذِهِ الْحَالَةَ الْعَجَبِيَّةَ ، وَلَيْسَ رَفِيٌّ وَشَيْءٌ أَنْ
أَتَرَفَّ بِكُنْهَيْهَا ، اسْتَنْصَيْتُ بَأَنِّ أَوْجَعَةٍ نَظَرِي إِلَى اتِّجَاةِ الْجَزِيرَةِ
فِي حَرَكَتِهَا .

وَأَسْتَطَعْتُ أَنْ أَبْصِرَ فِيهَا شُرَفَاتٍ عَدِيدَةً وَسَلَالِمَ بَيْنَ مَسَافَةٍ وَأُخْرَى
مُتَعَمِّلًا بَعْضُهَا بِبَعْضٍ . وَشَهِدْتُ فِي أَعْلَى شُرَفَاتِهَا رَجَالًا يَصِيدُونَ الطُّيُورَ
بِشُحُوصِهِمْ ، وَرَجَالًا آخَرِينَ يَشْهَدُونَ هَذَا الصَّبِيحَةَ .

فَأَشْرَفْتُ إِلَيْهِمْ بِقَبِيحَتِي وَمَنْدِيلِي . وَعِنْدَمَا دَنَوْتُ مِنِّي ، صِيحَتْ بِكُلِّ
قُوَايَ ، وَسَدَدْتُ النَّظَرَ ؛ فَإِذَا أَنَا حِيَالَ جُمْهُورٍ مُتَجَمِّعٍ عَلَى الصُّفَّةِ
الْمُوَاجِهَةِ لِي ، وَلَا حَظُّنْتُ مِنْ حَالَتِهِمْ أَنَّهُمْ رَأَوْنِي وَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لِنِدَائِي .
ثُمَّ بَصُرْتُ بِخَمْسَةِ أَشْخَاصٍ أَوْ سِتَّةٍ بَادَرُوا بِالصُّعُودِ إِلَى قِمَّةِ
الْجَزِيرَةِ . وَخَطَرْتُ لِي أَنَّهُمْ ذَهَبُوا إِلَيَّ بِبَعْضِ ذَوِي الشَّانِ ، لِتَتَلَقَّى الْأَوَامِرَ
الْأَلَزِمَةَ مِنْهُمْ فِي مِثْلِ هَذِهِ الْحَالَةِ .

ثُمَّ زَادَ - أَمَامَ نَظَرِي - عَدَدُ النَّاسِ فِي هَذِهِ الْجَزِيرَةِ . وَفِي قُرَابَةِ
نِصْفِ سَاعَةٍ جَعَلْتُ تَدُنُونِي حَتَّى كَانَتْ عَلَى قَيْدِ مِائَةِ مِثْرٍ مِنِّي .

وَجِئْتُ بِأَبْدَيْتُ تَوَشُّلِي وَرَجَائِي بِلَهَجَةٍ حَارَّةٍ ، وَلَكِنْ لَمْ يَتَعَمَّلَ بِي
مِنْهُمْ رَدٌّ عَلَى نِدَائِي .

وَكَانَ أَقْرَبَ مَنْ ظَهَرَ أَمَامَ نَظَرِي : بَعْضُ ذَوِي الْوُجَاهَةِ . وَأَخْبَرَا
سَمِعْتُ صَوْتَ أَحَدِهِمْ يَتَحَدَّثُ بِلُفَّةٍ وَاضِحَةٍ ، غَايَةِ فِي الرِّقَّةِ وَالْأَدَبِ ،

وكانت هذه اللغة تُقَرَّبُ مِنَ الإِيطَالِيَّةِ ؛ فَحَدَّثْتُ بِالْإِيطَالِيَّةِ ظَنًّا مِنِّي
أَنَّ هَذِهِ اللُّغَةَ تَخْلُو فِي آذَانِهِمْ أَكْثَرَ مِنْ أَيِّ لُغَةٍ عِداها .
عَلَى أَنَّهُمْ قَدْ أَذْرَكُوا مَا أُرْمِي إِلَيْهِ ؛ فَاسْأَلُوا عَلَيَّ بِأَن أُخَدِّرَ عَنِ
الصَّخْرَةِ الَّتِي أَنَا قَائِمٌ عَلَيْهَا ، وَأَنْ أَفْضِيَ صَوْبَ الشَّاطِئِ .
فَصَدَعْتُ بِهِذِهِ الْإِشَارَةَ ، وَأَلْقَيْتُ الْجَزِيرَةَ الطَّائِرَةَ تَهْبِطُ إِلَى دَرَجَةِ
مُنَاسِبَةٍ ، وَأَلْقَوْا إِلَيَّ - مِنْ أَذَى شُرْفَةٍ - سِلْسِلَةً بِهَا مَقْعَدٌ
جَلَسْتُ عَلَيْهِ .

وَفِي لَحْظَةٍ وَاحِدَةٍ رَفَعَتْنِي تِلْكَ السِّلْسِلَةُ - الْمُثَبَّتَةُ فِي بَكَرَاتِ
عَدِيدَةٍ - إِلَى الْجَزِيرَةِ الطَّائِرَةِ .

الفصل الثاني

١ - أَهْلُ الْجَزِيرَةِ الطَّائِرَةِ وَعَادَاتُهُمْ

وَلَمَّا انْتَهَيْتُ إِلَى الْجَزِيرَةِ ، أَحَاطَ بِي جُمُهورٌ مِنْ أَهْلِهَا ، وَظَلُّوا
يَنْظُرُونَ إِلَيَّ فَظَرَاتٍ مِلُّوْهَا النُّعْشَةُ وَالْعَجَبُ . وَلَمْ تَكُنْ دَهْشَتِي مِنْهُمْ
بِأَقْلٍ مِنْ دَهْشَتِهِمْ مِنِّي ؛ فَإِنْ عَيْنِي لَمْ تَقَمَّ - طَوِيلَ عَمْرِي - عَلَى أَمْثَالِهِمْ

مِنَ النَّاسِ . وَكَانَتْ

أَزْيَاؤُهُمْ وَوُجُوهُهُمْ

وَحَرَكَاتُهُمْ غَايَةً فِي الْفَرَابَةِ ؛

قَدْ رَأَيْتُهُمْ يُحَرِّكُونَ

رُءُوسَهُمْ يَمْنَةً وَيَسْرَةً - بَيْنَ حَيْنٍ وَآخَرَ - وَيُمِيلُونَهَا إِلَى الْأَرْضِ ،
وَيَحْنُونَهَا مَائَتِهِمْ . وَقَدْ أَدَهْشَنِي أَنَّي كُنْتُ أَرَى كُلَّ وَاحِدٍ - مِنْ سُكَّانِ
تِلْكَ الْجَزِيرَةِ - يَنْظُرُ بِإِخْدَى عَيْنَيْهِ إِلَى مَا أَمْلَعَهُ ، وَيُرْسِلُ عَيْنَهُ
الْأُخْرَى إِلَى السَّمَاءِ .



وكانت نياتهم مُرداةً بِتصاوِرٍ معجبةٍ ، تُشَبِّلُ الشمسَ والقمرَ
والكواكبَ والنَّائِ والوَدَّ والكَمَانَ والطَّبُولَ ، وما إلى ذلك من
آلاتِ المَوسِيقا المألوفةِ ؛ وَغَيرِ المألوفةِ ؛ فقد وقع بِبَصَرِي - في تلك
الجزيرة - على ألوانٍ شَتَّى من الآلاتِ التي لا عهدَ لَنَا بِرُؤْيَها
في بلادنا .



ورأيتُ حَوَلَهُم جَهْرَةً
من الخَدَمِ يحملون أكياسًا
مُتَلَفَّةً في أطرافِ عصيٍ
صغيرةٍ ، وفي تلك الأكياسِ
كثيرٌ من الحصى والمساميرِ .
ولَئِدَّ ما تَمَلَّكَتَنِي الذُّعْمَةُ

حينَ رأيْتُهم يَضْرِبونَها أَقْوَاءَ من حَدَرِيُونِ منهم أو أَذَانَهُم ، من غيرِ أنْ
أَعْرِفَ لَذلك سَبَبًا .

على أَنِّي قد أَدْرَكْتُ السَّرَّ في ذلك : فقد علمتُ أن ذلك الشعبَ
غارقٌ في التفكيرِ لا يَكادُ يُفِيقُ ، وهو دائِمُ الصَّمْتِ لا يَكادُ يُصْنِئُ

لما حَوَلَهُ ، ولا يَكادُ يَسْمَعُ ما يُقالُ له ، ولهذا يلجأُ النِّصَمُ إلى إِيصافِهِ
بتلك الأكياسِ كُلِّها أَرادُوا أن يُضْفُوا إِلَيهِ بِخَيْرٍ ، أو يُعَدُّوهُ بِأَمْرٍ
من الأمورِ . ولا سَبِيلَ إلى إِيصافِهِ - من تَكْبِيرِ السِّيقِ - بِغَيرِ
هذه الوَسِيلَةِ .

ومن عَادَةٍ كُلِّ خادِمٍ أن يَصْحَبَ سَيِّدَهُ كُلِّما خَرَجَ ، ويَضْرِبَهُ
بذلك الكيسِ عَلَى فِئِهِ كُلِّما رَأاهُ يَتَرَضُّ لِيُخَطِّرَ من الأخطارِ ؛
لِيُوقِظَهُ من سُبَاتِهِ وأَحْلَامِهِ ، وَيُنَبِّهَهُ إلى الخَطَرِ المُخْدِقِ بِهِ ، وَنَهْيَهُ
شَرَّ السُّقُوطِ في هُوَّةٍ أو غَدِيرٍ ، أو الإِصْطِدامِ بِصَخْرَةٍ أو إنسانٍ
يَتَرَضَّاهُ في الطَّرِيقِ .

٢ - في فَصْرِ التِّلْكِ

نَهِمَ سارُوا إلى حَتَّى أَوصلْتُ إلى تِثَّةِ الجزيرةِ ، وأدخلوني قَصْرَ
الملكِ ؛ فَرَأَيْتُهُ مُتَوَكِّفًا عَلَى عَرَشِهِ ، تَكْتَفِفُهُ صَوْنَةُ الْأَعْيَانِ
والسُّرُورِ ، وأمامَهُ خِوانٌ كبيرٌ قد نَمَتَ عَلَيْهِ كُرَاتٌ مُخْتَلِفَةُ الْأَحْجَامِ ،
ودَوَائِرُ وآلاتٌ هَدَسِيَّةٌ مُتَبَايِنَةُ الْأَشْكَالِ والأَلْوَانِ .

فلم يَنْتَبِهَ الملكُ إلى وقت دُخُولِي ، وإن كان رِفاقِي قد أَحْدَثُوا
عند مَقْدَمِي سَجَّةً عَظِيمَةً ؛ فقد كان الملكُ - حينئذٍ - غَارِقًا في
حَلِّ سَأَلَةٍ رِياضِيَّةٍ . وَتَمَلَّكْتُ أَمَامَهُ أَكْثَرَ مِنْ سَاعَةٍ ، حَتَّى فَرَعْتُ
مِنْ تَفْكِيرِهِ . وَكَانَ عَلَى مَقَرَّبَةٍ مِنْهُ خَادِمَانِ يَبْدِي كُلُّهُمَا كَيْسٌ
صَغِيرٌ ؛ فلم يَنْتَبِهْ مِنْ أَهْلَامِهِ ، حَتَّى قَدَّمْتُ إِلَيْهِ أَحَدَهُمَا ، وَصَرَّيْتُ
- بِذَلِكَ الْكَيْسِ - عَلَى قَمِيهِ ، فِي أَدَبٍ واحْتِرَامٍ . ثُمَّ قَدَّمْتُ الثَّانِي
وَضَرَبْتُهُ بِالْكَيْسِ عَلَى أُذُنِهِ الْبُشْرَى - فِي إِجْلَالٍ وَكِبَارٍ - فَاسْتَقْبَلَ
مِنْ غَفْلَتِهِ فَرَعًا مَذْعُورًا ، وَأَجَالَ بَصَرَهُ فِيَّ ، وَفِي مِنْ حَوْلِهِ مِنْ
الْحَاضِرِينَ ، وَذَكَرْتُ مَا أَخْبَرُوهُ عَنِّي قَبْلَ مُتَوَلِّي بَيْنَ يَدَيْهِ . ثُمَّ أَقْصَى
إِلَيَّ بِكَلِمَاتٍ لَمْ أَفْهَمَهَا . وَهَدَمْتُ إِلَيَّ أَحَدُ الْفَتَيَانِ ، وَفِي يَدِهِ كَيْسٌ ؛
فَضَرَبَنِي بِهِ عَلَى أُذُنِي الْيُمْنَى ؛ فَانْتَرْتُ إِلَيْهِ أَنْ يَكْفُفَ عَن ذَلِكَ
لَأَنْتِي مُنْقَبِهٌ ، وَلَعَلَّ لِكُلِّ مَا يُفَضُّونَ بِهِ إِلَيَّ . فَجَبَّ الْمَلِكُ وَالْحَاضِرُونَ
مِنْ ذِكَاكِي وَاتِّبَاحِي النَّادِرِينَ . ثُمَّ وَجَّهَ إِلَيَّ الْمَلِكُ أَهْبَلَةً عِدَّةً ،
فَأَجَبْتُهُ عَنْهَا - جَهْدَ طَاقَتِي - بِإِشَارَاتٍ مُخْتَلِفَةٍ .

٣ - آلاتُ الموسيقى

وبعدَ قَلِيلٍ أَدْخَلُونِي حُجْرَةً أُخْرَى ، وَقَدَّمُوا لِي طَعَامًا ، وَتَقَصَّلَ
أَرْبَعَةٌ مِنْ رِجَالِ الْعَاشِيَةِ ، فَجَلَسُوا إِلَى جَانِبِي عَلَى الْمَائِدَةِ . وَقد
اشْتَدَّ عَجَبِي مِمَّا رَأَيْتُ مِنْ أَلْوَانِ الطَّعَامِ ؛ فَقَدْ كَانَتْ كُلُّهَا مَصْنُوعَةً
عَلَى أَشْكَالٍ هَذَبِيَّةٍ عَجِيبَةٍ : فَكَتِفُ الْخُرُوفِ عَلَى شَكْلِ مُثَلَّثٍ ،
وَالْبَطُّ عَلَى شَكْلِ كَبَابٍ ، وَالْخُبْزُ أَشْطَوَائِي .
وَلَيْسَ فِي الطَّعَامِ لَوْنٌ مِنَ الْأَلْوَانِ مَصْنُوعٌ صُنْعًا عَادِيًّا ؛ فَقَدْ تَخَيَّرُوا
لِكُلِّ قِطْعَةٍ مِنْهُ مَا يَلَايِمُهَا مِنْ آلاتِ الْمَوْسِيقَا .

٤ - لُحَّةُ الْبِلَادِ

وبعدَ أَنْ فَرَعْنَا مِنَ الطَّعَامِ جَاءَ إِلَيَّ أَشَدُّ مِنْ قَبْلِ التَّلَاحِ ،
وَمَعَهُ قَلَمٌ وَمِعْبَرَةٌ وَوَرَقٌ ، وَأَفْهَمَنِي - بِمَا أَبْدَاهُ إِلَيَّ مِنْ حَرَكَاتٍ
وَإِشَارَاتٍ - أَنْ جَلَّاسُهُ قَدْ أَمَرَ أَنْ يُعَلَّمَنِي لُحَّةَ الْبِلَادِ .
وَلَبِثْتُ مَعَ ذَلِكَ الْأَسَاطِفِ أَرْبَعَ سَاعَاتٍ ، تَعَلَّمْتُ فِيهَا كَثِيرًا مِنْ

الكلمات والجمل القصيرة التي كان يُسرّها لي بإشاراتٍ تُقني على مدلولاتها ومعانيها .

وقد أملتني ذلك الأستاذ على صور الشمس والقمر والكواكب والدوائر القطبية وشتى الآلات الموسيقية ، وذكر لي أسماها جميعاً . ولما انتهيت من ذلك الدرس كتبتُ كل ما تلمنته في مُعْجَمٍ صَغيرٍ ، حتى لا أنساه .

ولم يمرَّ على وقتٍ قصيرٍ حتى سهَّلَ عليَّ أَنْ أُحدِثَهُم تلك اللغة ؛ فقد بذلتُ جهدي ، وسَخَرْتُ كلَّ مواهي وذِكائي في تَذْيِيلِ عَقَبَاتِ تلك اللغة ، حتى عَرَفْتُهَا ، وَفَهِمْتُ أَنَّ كَلِمَةً « لاووتا » - التي يُطْلِقُونَهَا على جَزِيرَتِهِم - معناها : الجزيرة الطيارة .

٥ - خَيْاطُ « لاووتا »

وفي صَباحِ اليومِ الثاني ، قَدِمَ إليَّ أَحَدُ الْخِيَّاطِينَ لِيَصْنَعَ لِي ثَوْبًا أَبَدَهُ . وَالْخِيَّاطِينَ فِي تِلْكَ الْجَزِيرَةِ طَرِيقَةٌ عَجِيبَةٌ لَمْ تَأْلَقْهَا فِي بِلَادِنَا ؛ قَدْ بَدَأَ الْخِيَّاطُ عَمَلَهُ بِقِيَاسِ طُولِ جَسَمِي وَعَرَضِهِ ، وَظَلَّ يُجْرِي

حِابَهُ فِي طَرَفِي هَنْسِيَةٍ مُلْتَوِيَةٍ ، وَيَسْتَمِلُ السِّطْرَةَ وَالْفَرْجَارَ زَمَنًا طَوِيلًا . ثُمَّ وَدَّعَنِي وَانْصَرَفَ . وَعَادَ إِلَيَّ بِدَأْسٍ مُجَرَّدٍ ، وَمَعَهُ ثَوْبٌ مُشَوَّشٌ التَّفْصِيلِ . وَقَدِ اعْتَدَلَ إِلَيَّ مِنْ ذَلِكَ بَأَنَّهُ قَدْ أَخْطَأَ فِي حِابِهِ .

٦ - شِكَاوَى الشَّعْبِ

وفي هَذَا الْيَوْمِ أَمَرَ جَلَالُهُ الْمَلِكُ أَنْ تَتَقَدَّمَ جَزِيرَتُهُ إِلَى مَدِينَةٍ



« لاجادو » ، وَهِيَ الْمَدِينَةُ الثَّانِيَةُ لِمَمْلَكَتِهِ ، وَاعْتَزَمَ أَنْ يَجُوبَ الدُّنَى وَالْقُرَى ؛ لِيَقِفَ عَلَى أَحْزَالِ شَعْبِهِ وَشِكَاوَاهُ .

فَأَلْقَى رِجَالَهُ خُيُوطًا عَدَّةً ، يَخْتَمِي كُلُّ خَيْطٍ مِنْهَا بَقِطْعَةٍ مِنَ الرِّصَاصِ ؛ لِيَتَرَبَّطَ فِيهَا الْمُظْلُومُونَ وَالنَّاكُونَ ظُلَامَتِهِمْ ؛ فَإِذَا انْتَهَوْا مِنْ ذَلِكَ ، رَفَعَتْ الْخُيُوطُ ، وَعَرِضَتْ عَلَى الْمَلِكِ لِيَنْظُرَ فِيهَا .

السَّاجِدِ الذِي شَفَلَتْهُ التَّوَابِعُ وَالرُّهَاتُ عَنْ حَقَائِقِ الْحَيَاةِ ؛ فَرَّقُوا
فِي أَوْهَامِهِمْ ، وَاسْتَسْلَمُوا لِخَاوِفِهِمْ ، وَأَصْبَحُوا لَا يُعْنُونَ إِلَّا بِالتَّكْثِيرِ
الْمُبِيقِ فِي خُرَافَاتِهِ لَا تُجْدِي .

وَمِنْ أَوْهَامِهِمْ : أَنَّ الْأَرْضَ إِذَا اقْتَرَبَتْ مِنَ الشَّمْسِ اخْتَرَتْ
وَاحْتَرَقَ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا . فَهَمْ لَا شُغْلَ يَشْفُلُهُمْ إِلَّا الْخَوْفُ مِنْ هَذَا
الْمَصِيرِ الْمَرْهُوبِ ؛ فَاذَا أَصْبَحُوا ، ظَلَّ كُلُّ وَاحِدٍ يَسْأَلُ صَاحِبَهُ عَمَّا
حَدَّثَ لِلشَّمْسِ ، وَكَيْفَ عَرَبَتْ وَكَيْفَ أَشْرَقَتْ .
وَهَكَذَا يَفْضُونَ أَوْقَاتَهُمْ فِي عَبَثٍ وَأَوْهَامٍ لَا طَائِلَ تَحْتَهَا .

٧ - اللُّغَةُ وَالْمُوسِيقَا

وَكُنْتُ - لِحُسْنِ حَقْلِي - عَارِفًا بِالرِّيَاضَةِ ، وَسَاعَدَنِي ذَلِكَ عَلَى
فَهْمِهِمْ لُغَتِهِمْ وَأَسَالِيِبِهِمْ فِي الْكَلَامِ . قَدْ مُنِنَتْ تِلْكَ اللُّغَةُ عَلَى الرِّيَاضَةِ
وَالْمُوسِيقَا ؛ فَهَمْ لَا يُعْبِرُونَ عَنْ أَفْكَارِهِمْ وَأَرَائِهِمْ بِغَيْرِ الْخُطُوطِ الْهِنْدِيَّةِ
وَالصُّوَرِ الْمُوسِيقِيَّةِ . فَاذَا مَدَّحُوا إِنْسَانًا جَمِيلَ الطَّلَعِ ، قَالُوا : إِنَّ
حَاجِيَتِي قَوْسَانِ بَدِيْعَتَانِ ، أَوْ قِطْعَتَانِ مِنْ دَائِرَةٍ جَمِيلَةٍ !
وَهُمْ يُشَبِّهُونَ الْعُيُونَ بِالْذَوَائِرِ ، وَالتَّوَاجِبَ بِالْقَبِيِّ ، إِلَى آخِرِ تِلْكَ
التَّشْبِيهَاتِ الَّتِي أَتَتْهَا .

٨ - حَمَاقَةُ الْأَهْلِيْنَ

أَمَّا بَيُّوْنُهُمْ قَدْ مُنِنَتْ عَلَى أَقْبَحِ طِرَازٍ . وَمِنْ الْعَجِيبِ أَنَّ أَهْلَ
تِلْكَ الْبِلَادِ - عَلَى وَلُوعِهِمْ وَشَفَفِهِمْ بِالْهِنْدَسَةِ النَّظَرِيَّةِ - لَا يُقِيمُونَ
وَرَنًا لِلْهِنْدَسَةِ الْعَمَلِيَّةِ ، بَلْ هُمْ يَخْتَرِعُونَهَا اخْتِيارًا شَدِيدًا .
وَالْحَقُّ أَقُولُ ، إِنِّي لَمْ أَرَ فِي حَيَاتِي حَمَاقَةً كَحَمَاقَةِ هَذَا الشَّعْبِ

٢ - وَصْفُ الْجَزِيرَةِ الطَّيَّارَةِ

أما هذه الجزيرة الطَّيَّارَةُ فهي مُستديرة الشكل - كما رأيتها -
وتبلغ مساحتها نحوَ عَشْرَةِ آلافِ فَدَّانٍ قَرِيبًا .
وهي تَلُوحُ - لِمَنْ يراها - مَرَقَمَةً في الجَوِّ ، كأنَّها قطعةٌ كبيرةٌ
مَصْفُولةٌ من الماسِ ، يَبْدُو لِمَنَّاها على مَسَافَةٍ أَزْوَجِيَّةٍ خُطُوَةً .
ويرى الناظرُ - في أعلى الجزيرة - كثيرًا من المَعَادِنِ ،
كما يرى أرضًا خَصْبَةً يَدْرَجُجُ سَكْمُها بين عَشْرِ خُطُواتٍ
وَأَثْنَيْ عَشْرَةَ خُطُوَةً .

وَتَجْتَمِعُ الْأَمْطَارُ الَّتِي تَسْقُطُ على أرضِ الجزيرةِ في وَسْطِها ، حيثُ
تَنْفَرُجُ منها الْفُتْرَانُ الصَّغِيرَةُ ، وَتَتَّبِعُ مِنْ أَرْبَعَةِ يَنَابِيعٍ هِيَ أَشْبَهُ
بِالْأَخْوَاضِ الْكَبِيرَةِ . وَالشَّمْسُ - وَحَدَّها - كَقِفْلَةٍ يَبْخِيرُ الْمَاءَ
- نَهَارًا - حَتَّى لَا يَبْقَى عَنْ حَاجَةِ الْجَزِيرَةِ .

وفي مَدْوَرِ الْمَلِكِ أَنْ يَرْفَعَ الْجَزِيرَةَ - إِذَا شَاءَ - حَتَّى تَلُوحَ
مِنْطَقَةُ الشُّحْبِ ، وبذلك يَتَنَبَّأُ هُطُولَ الْأَمْطَارِ وَتَسَاقُطَ التَّدَى على

الفصل الثالث

١ - يَنْ يَدَى الْمَلِكِ



وَأَشْفَقَتْ خَشْيَ أَنْ أَرَى عَرَّابَ هَذِهِ الْجَزِيرَةِ الَّتِي سَمِعْتُ عَنْهَا مِنْ
أَهْلِهَا ؛ فَتَلَّوْتُ بَيْنَ يَدَيَّ تَلِكِهَا ، وَالتَسْتُ مِنْهُ أَنْ يَأْذَنَ لِي
فِي رُؤُوسِهَا ؛ فَأَقَرَّ التِّلْسِي ، وَعَهْدَ إِلَى بَعْضِ حَاشِيَتِهِ أَنْ يَصْحَبَنِي
وَيُرْسِدَنِي إِلَى ذَلِكَ .

وقد كَانَ أَكْثَرُ مَا يَمْنَعُنِي أَنْ أَنْتَرِفَ حَقِيقَةَ الْجَزِيرَةِ ، وَأَقِفَ
على أَشْرَارِهَا الطَّبِيعِيَّةِ وَالصَّنَاعِيَّةِ الَّتِي أَكْبَنَتْهَا تِلْكَ التَّرَايَا الْعَجِيبَةُ ؛
فَجَمَعْتُهَا طَلِيرُ فِي الْفَضَاءِ وَفَقَّ أَفْرَاضِ أَهْلِهَا ، وَتَسِيرُ إِلَى حَيْثُ
يُوجِّهُونَهَا ، وَحَقَّ كَلِّهَا أَرَادُوا .

جزيرته . وليس في قدره أحد من ملوك الأرض قاطبة أن يضل
مثل ذلك .

وقد رأيت في وسط الجزيرة كهفا واسما يستد في أعماقها إلى
مسافة كبيرة، يضيئه خمسون مضبا، يتألق سناها، ولا يخبو نورها
أبدا؛ لأنها من الماس . والضوء ينشأ منها إلى جميع أرجاء
الكهف .

وقد أطلقوا على هذا الفاراسم «اليرصد» ؛ لأنه حوى من ممدات
الفلكيين وأدواتهم شيئا كثيرا .

٣ - حجر المنطيس

ولعل أغرب ما رأيته في تلك الجزيرة هو حجر من المنطيس ،
كبير الحجم ، هندسي الشكل ، يخيل للراي أنه قطعة من الثياب
المنسوجة . وقد علق هذا الحجر الضخم في سلسلة متينة من الماس ،
تخترمه من وسطه ؛ فيظل الحجر يهتز - لذلك - اهتزازات
مستمرة متباعدة .

وقد عجبت أشد العجب من دقة واضيعه وبراعتهم في الهندسة
إلى هذا المدى البعيد ، حتى ليظن رأيي أن يدأ ضيفة تهزه وتحركه
كما تشاء .

...

وترى حول هذا الحجر دائرة من الماس هي أشبه شيء بأسطوانة
مجوقة ، موضوعة وضعا أفقيا ، وقائمة على ثمان قواعد مرتعة
من الماس .

ولن تستطيع أية قوة أن تحرك هذا الحجر ؛ لأن الدائرة وقوائمها
تعد قطعة واحدة من الماس ، هي قاعدة تلك الجزيرة .

وهذا الحجر المنطيسي هو الذي يحرك الجزيرة ، ويرفعها ويهبطها ،
ويسيرها ويقفها .

ويعد ملك هذه الجزيرة أقوى ملك في العالم ، وكلما يجرو
شعب من شعوبه على مخالفتهم ؛ لأن كل مدينة تستضي عليه ، أو
تزدد في طاعة أمره ، أو تتواني عن دفع الضرائب ، تعرض نفسه
لويلات ومصائب لا قبل لها بإحتمالها .

٤ - انتقام الملك

وَالْمَلِكُ فِي تَأْدِيبِ الْمُصَاةِ وَالْمُتَمَرِّدِينَ طَرِيقَانِ :
أَوَّلَاهُمَا : أَنْ يُوجَّهَ جَزِيرَتُهُ الطَّيَّارَةُ إِلَى الْمَدِينَةِ الثَّائِرَةِ أَوْ الْمَاصِيَةِ ،
حَتَّى إِذَا بَلَغَهَا أَمَرَ أَعْوَانَهُ بِوَقْفِ جَزِيرَتِهِ فِي الْجَوِّ زَمَنًا طَوِيلًا ؛ لِتَحْجُبَ
الشَّمْسُ وَالْمَطَرُ عَنِ الْمَدِينَةِ ، فَتَمُوتَ جَرَائِمُ الْأَمْرَاضِ الْفَتَّاكَةِ ،
وَيَنْتَشِرَ الْمَرَضُ ، وَتَكْثُرَ الْوَفَايَاتُ .

وَالطَّرِيقُ الثَّانِي : يُلْجَأُ إِلَيْهَا الْمَلِكُ إِذَا تَمَادَى الشُّعْبُ فِي التَّمَرُّدِ
وَلَجَّ فِي الصِّبْيَانِ ، فَتَقْتَمَةُ بِأَمْرِ الْمَلِكِ أَعْوَانَهُ أَنْ يَقْدِفُوهُمْ بِجِجَارَةٍ
ضَخْمَةٍ تَهْوِي عَلَى رُءُوسِهِمْ وَيُبْهِتُهُمْ مِنْ جَزِيرَتِهِ ، فَتَهْلِكُ النَّاسُ
وَتَهْرَمُ الْبُيُوتُ .

وَفِي قُدْرَةِ الْمَلِكِ أَنْ يَأْمُرَ أَعْوَانَهُ - إِذَا عَزَمَ عَلَى إِيلَاقَةِ مَدِينَةٍ
كَامِلَةٍ - أَنْ يُهَيِّطُوا الْجَزِيرَةَ عَلَيْهَا قُدْسَرً مِنْ فِيهَا ، وَتَسْقُ مَا تَحْوِيهِ
مِنْ مَاشِيَةٍ وَبَيْتٍ ، فَلَا تُبْقَى وَلَا تَذُرُ .

وَلَكِنْ أَكْثَرُ الْمُدُنِ تَكْتَنِفُهَا الصُّخُورُ الشَّاهِقَةُ ، فَخَبِئَهَا ذَلِكَ

الْخَطَرَ الذَّاهِمَ ، وَلَا تَسْتَطِيعُ الْجَزِيرَةُ الطَّيَّارَةُ أَنْ تَهْبِطَ عَلَيْهَا ؛ حَتَّى
لَا تَقْطَعِدَ وَتَتْلِكَ الصُّخُورَ الْعُرْفَةَ فَتَتَخَطَّمُ تَخْطِيمًا .

وَلِهَذَا السَّبَبِ - وَخِذْهُ - يَأْمُرُ الْمَلِكُ أَعْوَانَهُ - إِذَا أَصْرَّ عَلَى تَذْمِيرِ
مَدِينَةٍ - أَنْ يُهَيِّطُوا الْجَزِيرَةَ عَلَيْهَا فِي رُفْقٍ وَحَدَرٍ ، وَيُوهِمُ النَّاسَ
أَنَّ الرَّحْمَةَ وَالشَّفَقَةَ تَذْفَعَانِهِ إِلَى التَّرِيثِ وَالْأَنَاقَةِ فِي انْتِقَامِهِ ، وَإِنْ كَانَتْ
الْحَقِيقَةُ الذَّائِمَةُ الَّتِي يَعْرِفُهَا الْجَمِيعُ هِيَ أَنَّهُ لَا يَخْشَى إِلَّا عَلَى جَزِيرَتِهِ
وَحِذْهَا مِنَ الذَّمَارِ وَالشَّلَفِ .

وقد منحني جلالتُه كثيرًا من الهدايا ، كما قدَّم لي الشَّيْخُ مائَةً
ثمينةً ، وأحضرَ لي كتابَ تَوْصِيَةٍ من الملك إلى أحدِ أصدقائه في
« لاجادو » عاصمة « بالتيارب » .

وقد أنزلوني من الجزيرة الطَّيَّارَةِ بنفسِ الطريقة التي أصعدوني
بها إليها . فواصلتُ السَّيْرَ حتى بَلَغْتُ مدينةَ « لاجادو » ، وحَدِثُ
الله على خلاصي من ضُحْبَةٍ أولئك الحَمَقِ ، واطمأنتُ نفسي حين
غادرتُ الجزيرة الطَّيَّارَةَ ، وأصبحتُ أُسِيرُ على الأرضِ الثَّابِتَةِ .

٢ - في مَدِينَةِ « لاجادو »

واغْتَدَيْتُ - بعدَ قليلٍ - إلى بَيْتِ السَّيِّئِ ، وأَرَيْتُهُ كِتَابَ
التَّوَصِيَةِ الذي أَعْطَانِيهِ ملكُ الجزيرة الطَّيَّارَةِ ؛ فَرَحَّبَ بي ،
وأَكْرَمَ وِفَادَتِي .
وقَضَيْتُ عنده زَمَنًا في حُجْرَةٍ فَخِيرَةٍ ، وكان يَصْحَبُنِي في زُرْهُي
وإِقامتي ، وَتَقِلُّنا مَرَكَبَتُهُ إلى المدينة .
وقد أَذْهَبَنِي ما رأيته في تلك المدينة من بُيُوتِ خَرِبَةٍ ، وَمَنَازِلِ

الفصل الرابع

١ - مِنَ الْجَزِيرَةِ الطَّيَّارَةِ إِلَى « بِالْتِيَارِب »

لَمْ تَكُنْ دَفَعْتَنِي مِنْ ذَلِكَ الشَّعْبِ الْعَجِيبِ أَقْلَ مِنْ دَهْشَةِ ذَلِكَ
الشَّعْبِ مِنِّي ؛ فَدَكَتُ وَإِنَاءَهُ جِدًّا مُخْتَلِفِينَ فِي النَّزَعَةِ وَالْفَهْمِ .



كَانَ الشَّعْبُ عَلَى
حِفْظٍ كَبِيرٍ مِنْ
الْبَرَاغَةِ فِي الْجِبَابِ
وَالْمُوسِقَا ، وَلَمْ تَذِنْ
مَوَاهِي تُوَهَّلِي لِمَجَارَاتِهِ فِيهَا ؛ وَكَانُوا لِذَلِكَ لَا يَتِمَالَكُونَ أَنْ يَتَحَقَّرُونِي .

وقد عَزَمْتُ عَلَى الْفِرَارِ مِنَ الْجَزِيرَةِ ؛ فَذَهَبْتُ إِلَى شَيْخِ مُسِينٍ
كَسْتُ أَنَسُ بِالتَّحَدُّثِ إِلَيْهِ ، وَكَانَ يَطْلُقُ عَلَيَّ ، فَزَجَّوْنُهُ أَنْ يَسْتَاذِنَ
لِيَ الْمَلِكِ فِي السَّفَرِ . فَوَعَدَنِي بِتَحْقِيقِ رَجَائِي ، وَأَظْهَرَ أَلَمَهُ لِعِرَاقِي .
وبعدَ زَمَنٍ قَلِيلٍ حَصَلَ عَلَيَّ إِذْنٌ مِنَ الْمَلِكِ بِذَلِكَ .

مُهَدَّمَةٍ ، وَحُقُولٍ جُرْدٍ ؛ فَأَتَتْهُ عَنْ سِرِّ هَذَا الْخَرَابِ ، فَوَعَدَنِي بِالْإِجَابَةِ
عَنْ سُؤَالِي فِي فُرْصَةٍ أُخْرَى .

ولمَّا جَاءَ الْيَوْمُ
الْبَاقِي ، سَارَ بِي حَتَّى
خَرَجْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ ؛
فَرَأَيْنَا - عَلَى مَسَافَةٍ
ثَلَاثَ سَاعَاتٍ مِنْهَا -
دَسْكَرَةً نَفِيرَةً
وَقَصْرًا فَالِخِرَاءَ تَكْتَنِفُهُ
بُيُوتٌ جَمِيلَةٌ وَرِياضٌ
مُزْدَهَرَةٌ . فَعَجِبْتُ



مِنْ جَمَالِهَا وَوُفُورَةِ مَخْصُولِهَا ، وَسَأَلْتُهَ : « لِمَ هَذَا كُلُّهُ ؟ »
فَقَالَ لِي وَهُوَ يَتَهَدَّدُ مُحْزُونًا : « مِنْ هُنَا تَبَدُّ أُمَلَاكِي ، وَقَدْ كُنْتُ
مُحَافِظًا لِمَدِينَةٍ ، وَأَقَالُونِي مِنْ ذَلِكَ التَّعْصِيبِ ، وَهَرُّنَا بِي لِأَنِّي - فِيمَا
يَزْعُمُونَ - رَجُلٌ رَجِيحٌ لَا أَصْلَحُ لِلْحُكْمِ فِي هَذَا النَّصْرِ الْمُسْتَعْبِرِ . »

٣ - آراءُ الْحَقِّقِ

فَسَأَلْتُهُ أَنْ يَزِيدَنِي إِضْبَاحًا ، فَقَالَ :

« لَقَدْ حَلَّ بِلَادِنَا جَمَاعَةٌ مِنْ مُفَكَّرِي الْجَزِيرَةِ الطَّيَّارَةِ مِنْذُ
أَرْبَعَةِ أَقْوَامٍ ، وَأَشَارُوا عَلَى حَاكِمِ الْمَدِينَةِ أَنْ يَهْدِمَ بُيُوتَ الْأَهْلِيينَ
لِيُعِيدُوها عَلَى أَكْمَلِ طَرَازٍ ؛
فَأَطَاعَهُمْ كَثِيرٌ مِنْ خَلْبَتِهِمْ
آرَاؤُهُمُ الْجَدِيدَةِ ، وَشَدَّ عَنْ
الطَّاعَةِ رَهْطٌ قَلِيلُونَ كُنْتُ أَنَا
مِنْ بَيْنِهِمْ ؛ فَأَصْبَحْنَا مُوَضِّعِ
السُّخْرِيَةِ إِلَى الْيَوْمِ .



وَهَدَّمَ النَّاسُ بُيُوتَهُمْ ، ثُمَّ
عَبَّرُوا عَنْ إِنْشَاءِ بُيُوتٍ أُخْرَى مِنْهَا أَوْ أَحَقَرَ مِنْهَا . فَعَجِبْتُ مِنْ
جَهْلِهِ هَؤُلَاءِ الْمُتَقَلِّدِينَ الْمُتَقَوِّينَ بِالْآرَاءِ الْجَدِيدَةِ الْغَلَابَةِ ، مِنْ غَيْرِ
رُؤْيَةٍ وَلَا تَعَقُّلٍ . »

٤ - جامعة « لاجادو »



أَشَعَّتْ الشَّمْسُ ، أَغْبَرَّ الْوَجْهَ . فَحَدَّثَنِي أَنَّهُ



وَبَدَأَ بِأَيَّامِ قَلِيلَةٍ
رُزْتُ الْجَامِعَةَ ؛ فَرَأَيْتُ
الْعَجَبَ الْعَجَابَ ، وَلَقِيتُ
فِيهَا عَالِمًا مِنْ عُلَمَائِهَا
ظَلَّ ثَمَانِي سَوَاتٍ
يَفْكُرُ فِي الْإِخْتِدَاءِ
إِلَى طَرِيقَةٍ يَخْجِرُ بِهَا
أَشِعَّةَ الشَّمْسِ فِي أَوَانٍ
مُفَقِّلَةٍ ؛ لِيُخْرِجَهَا مَنَى
قَلَّتِ الْحَرَارَةُ ، وَرَأَيْتُهُ
يَسْجُجُ فِي عَالَمِهِ مِنْ
الْغِيَالِ وَلَا جَدْوَى
وَرَأَيْتُ عَالِمًا

آخَرَ يَفْكُرُ سِتِينَ عِدَّةً فِي طَرِيقَةٍ تَوْصِلُهُ إِلَى اسْتِخْرَاجِ الْجِصِّ وَالْبَارُودِ
مِنَ الرَّجَالِجِ .

وَقَابَلْتُ مُهَنْدِسًا أَخْبَرَنِي أَنَّهُ قَدْ وَفَّقَ إِلَى اخْتِرَاعِ طَرِيقَةٍ جَدِيدَةٍ
تُمْكِنُهُ مِنْ أَنْ يَبْنِيَ
الْمَنَازِلَ مِنْ أَعْلَى إِلَى
أَسْفَلٍ ، كَمَا تَفْعَلُ
الْعَنَاقِبُ وَالنَّحْلُ .
ووظِلْتُ أُحَادِثُ
وَاحِدًا بَعْدَ آخَرَ ،



وَأُعْجَبُ مِنْ خَيَالِهِمُ السَّقِيمِ . ثُمَّ شَرَعْتُ بِمَقْصَرٍ ، فَأَدْخَلُونِي حُجْرَةً
طَبِيبٍ مَشْهُودٍ لَهُ بِالْبَرَاعَةِ ، وَرَأَيْتُ مَعَهُ مِثْقَالَ رِزْمٍ أَنَّهُ يُزِيلُ بِهِ
الْمَقْصَرِ . وَأَرَادَ أَنْ يُفَنِّعَنِي بِبَرَاعَتِهِ ؛ فَفَنَعَ بِهِ كَلْبًا ، فَأَمَاتَهُ مِنْ
قُوْرِهِ ، فَشَهِدْتُ لَهُ بِالْبَرَاعَةِ فِي فَنِّهِ ! فَخَجَلْتُ ، وَكَفْتُ عَنْ عِلَاجِي .
وَرَأَيْتُ جَمَاعَةً مِنْ رِجَالِ اللُّغَةِ يَتَبَاكُونَ فِي طَرِيقَةٍ يُوحِدُونَ بِهَا
اللُّغَاتِ . وَسَمِعْتُهُمْ يَقُولُونَ : إِنَّ الْكَلَامَ يُنْسِبُ الصَّدْرَ ، وَخَيْرُ

الفصل الخامس

١ - في جزيرة السحرة



إذا صدقَ حَدِيثِي، ولم يُخْطِ طَفِي، فإنِّي أستطيعُ أن أقرَّ أن هذه المملكةَ تقعُ في قارةٍ لا أعرفُ اسمَها. وتمتدُّ هذه القارةُ إلى الشرقِ صَوْبَ بلادِ مَجْهُولَةٍ من القارةِ الأَمْرِيكِيَّةِ، ثم تذهبُ إلى الغربِ صَوْبَ «كاليفورنيا»، ثم تسيرُ إلى الشمالِ صَوْبَ المُحِيطِ الهادئِ. ولا تَبْعُدُ هذه المملكةُ عن «لاجادو» أكثرَ من خمسينَ ومِائَةَ مِيلٍ. ولهذه البلادِ مَرَقاً (ميناءً) مشهورٌ، وتجارةٌ واسعةٌ رابحةٌ يَدِينُها وبينَ جزيرةِ «لوجناج». وتقعُ جَزِيرَةُ السَّحَرَةِ في الشمالِ الغَرْبِيِّ منها، قَرِيباً من الدَّرَجَةِ العَشْرِينَ من خُطوطِ العَرْضِ الشماليَّةِ، والدرجةِ الأربعِينَ بعدَ المِائَةِ من خُطوطِ الطُولِ.



الإنسانُ أن يَسْتَعْنِي بِالْإِشَارَةِ عن الألفاظِ. ورأى بعضهم أن أفضلَ وسيلةٍ للكلامِ هي أن يَحْمِلَ فَوْقَ ظَهْرِهِ كُلَّ ما يُريدُ التَّعْبِيرَ عنه لِيَسْتَعْنِي بِحَمْلِهِ عَنِ النُّطْقِ بِاسْمِهِ. وهكذا حَرَجَتْ مِنْ تِلْكَ الْجَامِعَةِ وقد مَلَكَتْنِي الحَيْرَةُ واللَّهْفَةُ مِمَّا رَأَيْتُ مِنْ حَبْلِ هَؤُلَاءِ النَّاسِ وَتَحَبُّطِهِمْ. ولم تَكُنْ آراءُ عُلَمَاءِ السِّيَاسَةِ الَّذِينَ رَأَيْتُهُمْ فِي تِلْكَ الْجَامِعَةِ بِأَقْلَ تَحَبُّطًا مِنْ آراءِ أُولَئِكَ الْعُلَمَاءِ الْأَجْلَاءِ!

وتقع جزيرة « لوجناج » هذه في الجنوب الغربي من اليابان .
ولا تبعدُ عنها أكثر من مائة ميل .

وقد أبرمتْ معاهدةٌ وثائقٌ بينَ إمبراطورِ اليابانِ وَتلكِ
« لوجناج » ؛ فأُتيحتْ لى بذلكِ الفرصُ للتَّعَقُّلِ بينَ هذه البلادِ
وإمبراطوريةِ اليابانِ . وصَحَّتْ

عزيمتى على أن أسلكَ هذه الطريقَ
الْوَعْدَةَ إلى « أوزبِة » ؛ فاكْتَرَيْتُ
بَغْلَيْنِ لِحَمَلِ مَتاعى ، واستَصَحَبْتُ
دَلِيلًا لِإِرشادى إلى الطريقِ ،
واستَأذَنْتُ منَ الرَّجُلِ العظيمِ - الذى
أُصَافِيهِ ورأيتُ منه كُلَّ إِكرامٍ -
فأَذِنَ ، وقَدَّمَ لى هَدِيَّةً ثَمِينَةً .

ولم يَقَعْ لى - فى أثناءِ سفرى هذا - أىُّ حَدِثٍ يَسْتَحِقُّ الذِّكْرَ .
ولما وَصَلْتُ إلى ميناء « لاجادو » لم أجِدْ سَفِينَةً مُتَأَهِّبَةً لِلإِقْلَاعِ
إلى « لوجناج » . وقد رأيتُ أن « مالدونادا » مدينةً فى اتِّساعِ



« پورتسموث » تقريباً ، ثم تَرَفَّتْ بِيضُ أَهْلِهَا . وقد تَلَطَّفتْ لى
رجلٌ منهم فَحَدَّثَنِى أَنَّهُ لا يُمْكِنُ أن تُبَجَرَ سَفِينَةٌ إلى « لوجناج »
قَبْلَ شهرٍ ؛ فَيَحْسُنُ لى أن أُرَوِّجَ عن قَبَسِ بِسِيَّاحَةٍ صَغِيرَةٍ إلى
جزيرةِ السَّحَرَةِ ، وهى لا تَبْعُدُ عَنَّا أَكْثَرَ مِنْ خَمْسَةِ أَمْيَالٍ
صَوْبَ الجنوبِ الشرقى .

٢ - فى قَصْرِ الحاكمِ

ثم عَرَضَ عَلَىَّ أن يَصْحَبَنِى وصديقاً له فى هذه الرحلةِ إلى جزيرةِ
السَّحَرَةِ ، وأَعَدَّ زَوْزَقًا صَغِيرًا لِلذَّهَابِ إليها .

وهذه الجزيرةُ غايَةُ فى الغُصْبَةِ ، يحْكُمُها زعيمُ قبيلَةٍ جميعِ
أَهْلِهَا مِنَ السَّحَرَةِ ، وم لا يُخَالِطُونَ أَحَدًا ولا يَتَّصِلُونَ بِالنَّاسِ ،
وساكِهُمْ هو أكبرُ رجالِ القِبَلَةِ سِنًا .

وهذا الحاكمُ له قصرٌ فَنَمَ ، به حديقةٌ مِسَاحَتُهَا ثَلَاثَةُ آلافِ
فَدَّانٍ ، يَكْتَنِفُهَا سورٌ من الصَّخْرِ ارتفاعُهُ عِشْرُونَ قَدَمًا ، وبِهذهِ
للحِدَائِقِ بعضُ حُظَائِرٍ صَغِيرَةٍ لِسُكْنَى الدَّوَابِّ ، وَخَزَائِنِ الغِلَالِ .

وقومٌ على خِدمةِ الحاكمِ وأُسْرَتِهِ جَمْعَةٌ مِنَ الْعَدَمِ ، أَطْوَارُهُمْ
غَرِيبَةٌ ؛ فَهَذَا الْحَاكِمُ عَلِيمٌ بِالْأَسْرَارِ الْخَفِيَّةِ ، وَفِي مَقْدُورِهِ أَنْ
يَسْتَدْعِيَ الْمُوتَى وَيَضْطَرَّهُمْ إِلَى الْقِيَامِ عَلَى خِدْمَتِهِ أَرْبَعًا وَعِشْرِينَ سَاعَةً
كَامِلَةً . وَلَيْسَ فِي مَقْدُورِهِ أَنْ يُبَيِّدَهُمْ إِلَى الْحَيَاةِ زَمَنًا أَطْوَلَ مِنْ ذَلِكَ .
وَلَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَسْتَدْعِيَ رُوحًا مَرَّةً أُخْرَى ، قَبْلَ أَنْ يَمُرَّ عَلَى
الْعَرَقِ السَّابِقَةِ ثَلَاثَةَ أَشْهُرٍ ، إِلَّا أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ لِلْفَرَضِ خَطِيرٍ .
وَقَدْ وَصَلْنَا إِلَى الْجَزِيرَةِ فِي السَّاعَةِ الْحَادِيَةِ عَشْرَةِ قَرِيبًا قَبْلَ
الظُّهْرِ ، وَذَهَبَ أَحَدُ رَفِيقِي لِمُقَابَلَةِ الْحَاكِمِ ، وَقَالَ لَهُ : « لَقَدْ حَضَرَ
إِلَى هَذِهِ الْجَزِيرَةِ رَجُلٌ أَجْنَبِيٌّ يَرْجُو الْمُثُولَ بَيْنَ يَدَيِ سُوُكُمُ . »
وَقَدْ أَجَابَ الْحَاكِمُ الرَّجُلَ ، فَذَهَبْنَا ثَلَاثَتُنَا إِلَى فِنَاءِ الْقَصْرِ ،
وَمَرَرْنَا بَيْنَ صَفَتَيْنِ مِنْ رِجَالٍ مُسَلَّحِينَ مُرْتَدِّينَ ثِيَابًا مِنَ الْأَزْيَاءِ الْقَدِيمَةِ .
وَقَدْ أَحْدَثَ مَنَظَرُهُمْ عِنْدِي رُغْبًا وَفَرَعًا . ثُمَّ اجْتَزَيْنَا غُرَقًا أُخْرَى
وَنَحْنُ نَنَاضِدُ فِيهَا حَدَمًا مِثْلَ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ رَأَيْنَاهُمْ ، حَتَّى انْتَهَيْنَا
إِلَى عُرْفَةِ الْحَاكِمِ .
وَبَعْدَ أَنْ حَيَّنَاهُ - تَحِيَّةَ الْإِجْلَالِ وَالْإِحْتِرَامِ - ثَلَاثَ

مَرَاتٍ ، أَجْلَسَنَا عَلَى كُرْسِيِّ خَشِيبَةٍ صَغِيرَةٍ أَمَامَ عَرْشِهِ .
وَلَمَّا كَانَ يَمُرُّ لَفَةً « بِالْنِيَابِ » وَجَّهَهُ إِلَى عِدَّةٍ اسْتَلْقَوْا عَنْ
سِيَّاحَاتِي وَأَسْفَارِي .
وَأَرَادَ أَنْ يَتَبَسَّطَ مَعِيَ فِي الْحَدِيثِ ، وَيُذِيبَ الْكُلْفَةَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ ؛
فَأَشَارَ إِلَى جَمِيعِ الْعَدَمِ - بِإِسْمِهِمْ - أَنْ يَنْصَرِفُوا ؛ فَاسْتَخَفُّوا فِي مِثْلِ
طَرَفَةِ عَيْنٍ ، كَأَنَّهُمْ خَيَالَاتٌ وَأَوْهَامٌ !
وَتَمَلَّكَنِي خَوْفٌ ؛ فَلَمْ أَسْتَطِعْ أَنْ أَتُبَيَّنَ جَانِبِي (قَلْبِي) إِلَّا بَدَأَ عَنَاءٌ
شَدِيدٌ . وَلَا حَظَّ الْحَاكِمُ عَلَى الْخَوْفِ ؛ فَأَقْبَلَ يُطِيبُ خَاطِرِي وَيَهَيِّئُ
لِي . وَلَمْ يُبَدِّ رَفِيقَايَ شَيْئًا مِنَ الْجَزَعِ ؛ لِأَنَّهُمَا تَوَدَّأَ امْتَالًا ذَلِكَ .
وَبَدَأْتُ أَمَّاكُ وَأَسْتَجِيعُ ، وَأَنشَأْتُ أَقْصُ عَلَى سُوءِ الْوَقَائِعِ
الْمُتَخَلِّفَةِ الَّتِي حَدَثَتْ لِي فِي أَسْفَارِي . وَكُنْتُ أَتَحَدَّثُ فِي تَرَدُّدٍ ،
مُتَلَفِّئًا بَيْنَ حِينٍ وَآخَرَ إِلَى الْجِهَةِ الَّتِي اسْتَخَفَّتْ فِيهَا أَشْبَالُ الْعَدَمِ .
ثُمَّ دَعَانَا الْحَاكِمُ إِلَى الْفِدَاءِ ، فَاسْتَجَبْنَا لِدَعْوَتِهِ ، وَقَلَمَ عَلَى خِدْمَتِنَا
جَمَاعَةٌ آخَرُونَ مِنَ الْعَدَمِ ؛ فَلَبِثْنَا حَوْلَ الْمَائِدَةِ إِلَى غُرُوبِ الشَّمْسِ .
وَقَدْ لَاحَظْتُ أَنْ خَوْفِي يَحُلُّ شَيْئًا فَنِيئًا .

ثم عرض علينا الحاكم أن نبيتَ ليلتنا في قصره ؛ فتوسلتُ إلى سُووَه أن يُنَّ على بالإعفاء من ذلك . وذهبتُ ومعي صديقاي نجتُ عن سرير في فُندُق في المدينة المجاورة وهي عاصمةُ الجزيرة الصغيرة . وفي صباح اليوم التالي ذهبنا إلى الحاكم - كما طلب منا - وقضينا على هذه الحال عشرةَ أيامٍ ؛ فكنتُ أقضي أكبرَ شِعْطٍ من اليوم مع الحاكم ، حتى إذا أقبلَ الليلُ ذهبنا إلى فُندُقنا لنبيتَ فيه . وقد انتهى بي الأمرُ إلى أن اختلطتُ بالأرواح التي تظهرُ في أزياء الخدم ، وتمودُّنها ، ولم أخفَ منها كما كنتُ أخافُ من قبلُ .

٣ - أرواحُ الموتى

وحدثَ يوماً أن طلبَ مني سُووَه أن أُعَيِّنَ له أسماءَ من أريدُ من الموتى ليحضرهم ، ويكرههم على أن يجيئوا عما أُلقي من أسلحةٍ ، على شريطةٍ ألاَّ أسألهم إلاَّ عن الماضي ، أما الحاضرُ والمستقبلُ فلا شأنَ لهم بهما . وطلبَ مني أن أكونَ على يقينٍ من أنهم لا يَمُرُّونَ غيرَ الحقيقةِ ؛ لأنَّ الكذبَ لا وجودَ له في العالمِ الآخرِ .

فقبِلْتُ أَمْرَ سُووَه بَمَوفور الشكر . وكنا في حجرة تُشْرِفُ على منظرٍ بدیعٍ من الحديقة ، وكانت رَغْبَتِي في ذلك الوقتِ أن أرى



شيئاً من المواكبِ الضخمةِ ؛ قلتُ للحاكم : « إنني أريدُ أن أرى « الإسكندرَ الأكبرَ المقدوني » على رأسِ جيشه . وما هي إلا إشارةٌ من الحاكم حتى رأيتُ « الإسكندرَ الأكبرَ » وجيشه في ميدانٍ فسيحٍ تحتِ النافذةِ التي نُطلُّ منها ... !

وَدَعَا الْحَاكِمُ «الْإِسْكَنْدَرَ» لِلْمُحُودِ إِلَى الْحَجَرَةِ ؛ فَصِيدَ وَجَلَسَ
يُحَدِّثُ . وَقَدْ عَانَيْتُ كَثِيرًا فِي تَقَهُّمِ لُغَتِهِ الْيُونَانِيَّةِ ؛ لِأَنِّي لَمْ
أَكُنْ أُحِيدُهَا .

وَقَدْ أَقْسَمَ لِي بِسِرِّهِ : إِنَّهُ لَمْ يَكُنْ مَسْمُومًا ؛ وَلَكِنْ مَدِينَتُهُ كَانَتْ
بِسَبَبِ حُمَّى انْتَابَتْهُ مِنْ إِفْرَاطِهِ فِي الشَّرَابِ .

ثُمَّ رَأَيْتُ «هَانِيَالَ» وَهُوَ يَجْتَازُ «الْأَلْبَ» ، وَقَالَ لِي : إِنَّ مَا عِنْدَ
جَيْشِهِ مِنَ الزَّادِ قَدْ تَقَدَّ ، وَلَمْ يَبْقَ مِنْهُ شَيْءٌ . ثُمَّ رَأَيْتُ «يُولْيُوسَ
قَيْصَرَ» وَ«يُونْيُ» ، وَرَأَيْتُ كُلًّا مِنْهُمَا عَلَى رَأْسِ جَيْشِهِ ، يَتَأَهَّبَانِ
لِلْمَعْرَكَةِ ، وَرَأَيْتُ الْأَوَّلَ فِي عِزَّةٍ وَفُتْرَةٍ (حُسْنِ مَعُونَةٍ) .

وَأَرَدْتُ أَنْ أَرَى مَجْلِسَ الشُّيُوخِ الرُّومَانِيِّ ، فِي قَاعَةٍ كَبِيرَةٍ ؛
فَبَدَأَ لِي فِي حَثِّهِ الْكَامِلِ ، ثُمَّ أَشَارَ الْحَاكِمُ - تَلِيَّةً لِرَغْبَتِي -
إِلَى «قَيْصَرَ» وَ«بِرُوتُسَ» بِالْتَّقَدُّمِ ؛ فِدَاخَلَنِي إِعْجَابٌ وَاحْتِرَامٌ لِرُؤْيَا
«بِرُوتُسَ» وَتَبَيَّنَتْ مِنْ قِيَمَاتِ وَجْهِهِ آيَاتُ الشَّجَاعَةِ الَّتِي لَا تَقْهَرُ ،
وَقُوَّةُ الْمُرِيَّةِ الَّتِي لَا تُغْلَبُ ، وَالنِّضَائِي فِي حُبِّ وَطَنِهِ : شَمَائِلٌ عَالِيَةٌ
يَزِينُهَا لُطْفٌ كَبِيرٌ وَكَرَمٌ عَظِيمٌ .

وَلَا حِظُّ - مُقْتَبَطًا - أَنْ هَذَيْنِ الشَّخْصَيْنِ كَانَا عَلَى أَمْتِهِمْ وَفَاقِي .
وَقَدْ كَاشَفَنِي «قَيْصَرُ» أَنَّ كُلَّ مَا تَمَيَّزَ بِهِ مِنْ فَضَائِلَ ، كَانَ أَقْلًا مِمَّا
تَمَيَّزَ بِهِ «بِرُوتُسُ» عِنْدَمَا قَتَلَهُ !

وَكَانَ لِي الشَّرَفُ أَنْ تَحَدَّثْتُ وَقْتًُا طَوِيلًا مَعَ «بِرُوتُسَ» ، فَقَالَ لِي :
إِنَّ جَدَّ «جُونْيُوسَ» كَانَ صَدِيقَ «سُقْرَاطَ» ، وَقَدْ اسْتَمَعَ
كِلَاهُمَا بَعْضَ أَصْدَقَاتِهِمَا فِي تَأْلِيفِ مَجْمَعٍ أَطْلَقُوا عَلَيْهِ «مَجْمَعُ
السُّقْرَةِ» . وَكَانُوا أَفْذَاذَ الْعَالَمِ وَقَادَةَ السِّكْرِ ، وَلَمْ تَنْظُرِ الدُّنْيَا بِأَمْتَالِهِمْ
فِي طَوَالِ الْمُصَوِّرِ .

وَإِنِّي لِأَحْمِلُ النَّارِيَّ جَهْدًا ، إِذَا أَنَا ذَكَرْتُ الْكَثِيرِينَ مِنَ الْمُنْظَمَاءِ



الَّذِينَ طَلَبْتُ دَعْوَتَهُمْ ، لِرَغْبَتِي الْمِلْحَةِ فِي أَنْ أَرَى جَمِيعَ الْمُصَوِّرِ
الْقَدِيمَةِ مَائِلَةً أَمَامَ عَيْنِي !

وَإِنِّي لِأُمْتِنِعُ الْقُرْآنَ ، إِذَا ذَكَرْتُ لَهُمْ مَا شَهِدْتُهُ مِنَ الْمُدَّعَرِينَ

وَالظَّالِمِينَ وَالْمُتَصَصِّينَ ، وَمِنْ قَادَةِ الْأُمَمِ وَمُحَرَّرِي الشُّعُوبِ . وَلَكِنْ
يَتَذَكَّرُ عَلَى أَنْ تُعْرَبَ عَنْ غِبْطَتِي وَارْتِيَاخِي ، حِينَ شَهِدْتُ تَارِيخَ الْمَاضِي
بِجَمِيعِ صُورِهِ مِثْلًا أَمَامَ عَيْنِي فِي وَضُوحٍ وَجَلَاءٍ !

٤ - مَعَ الْقَدَمَاءِ

وَلَمَّا كُنْتُ شَدِيدَ الرَّغْبَةِ فِي رُؤْيَا الْقَدَمَاءِ الْمَشْهُورِينَ بِرَجَاحَةِ
الْقَمَلِ وَأَسَالَةِ الرَّأْيِ ، عَزَمْتُ عَلَى أَنْ أُخَصِّصَ الْيَوْمَ التَّالِيَ لَذَلِكَ .
فَطَلَبْتُ أَنْ يُظَاهَرَ لِي « هوميروس » و « أرسططاليس » وغيرهم من
قَادَةِ الْفِكْرِ ، وَدَارَتْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ مَنَاقِشَاتٌ طَوِيلَةٌ ، وَرَأَيْتُ أَغْلَبَ
أَبَاطِرَةَ الرُّومَانِ وَأَبْطَالَ الْمَسَارِكِ وَالْحُرُوبِ ، وَخَضِعْتُ خَمْسَةَ أَيَّامٍ
أَتَحَدَّثُ إِلَى أَفْئَادِهِ الْمَلَاءِ وَكِبَارِ الرِّجَالِ مِنَ الصُّورِ الْغَائِبَةِ .
وَاسْتَدْعَى الْعَاكِمُ بَعْضَ الطُّهَّانَةِ مِنَ الْقَمَاءِ لِنَهْيَةِ غَدَائِنَا ، وَلَكِنْهُمْ
لَمْ يَسْتَطِيعُوا أَنْ يُظَاهَرُوا كُلَّ مَهَارَتِهِمْ لَعَدَمِ تَوَثُّرِ التَّمَدَّاتِ الْلازِمَةِ .
وَكَلَّنَ رَفِيقَايَ اللَّذَانِ جَاءَا بِي إِلَى الْجَزِيرَةِ مُضْطَرَّيْنِ لِلْعُودَةِ إِلَى
بِلَدِهِمَا بَعْدَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ؛ فَخَضِعْتُ هَذِهِ الْمُدَّةَ فِي مَشَاهِدَةِ الْعُظَمَاءِ الَّذِينَ

مَاتُوا فِي الْقُرُونِ الثَّلَاثَةِ الْأَخِيرَةِ ، سِوَاهُ أَكَاوَا مِنْ بِلَادِي أُمِّ مِنْ
الْبِلَادِ الْأُخْرَى .

٥ - ظُلُمُ الْمُؤَرِّخِينَ

وَكُنْتُ شَدِيدَ الشَّوْقِ إِلَى رُؤْيَا الثُّبُلَاءِ ؛ فَطَلَبْتُ إِلَى الْحَاكِمِ أَنْ
يُرِيَسَنِي جَمْعَةً مِنْهُمْ ، فَعَمِلَ . وَاسْتَدْتُ دَهَشَتِي حِينَ تَكْشَفُ لِي مِنْ
تَارِيخِ هَؤُلَاءِ الثُّبُلَاءِ أَنَّ الْمُؤَرِّخِينَ رَفَعُوا رِجَالًا أَوْ أَغْيَاءَ ، إِلَى
صُفُوفِ الْقَوَادِ وَالْعُظَمَاءِ . وَصَفُّوا طَائِفَةً مِنَ الْجَهْلَةِ بِالْأَكْمِيَّةِ وَبَعْدَ النَّظَرِ
وَحَدِّعُوا فِي بَعْضِ الْمُتَمَلِّقِينَ ، فَسَلَكُوهُمْ فِي عِدَادِ السَّرَاقِ الْمَاجِدِينَ ؛
وَلَمَعُوا بَعْضَ الْأَشْرَارِ بِالطُّهْرِ وَالصَّلَاحِ . وَظَلَمُوا جَمْعَةً مِنَ الْأَخْيَارِ
فَوْضَوْهُمْ فِي صَفِّ الْغَوْنَةِ الْمَارِقِينَ . وَتَكْشَفْتُ لِي قَتْلٌ مِنْ الْأَبْرِيَاءِ
الَّذِينَ صَدَرَتْ عَلَيْهِمْ أَحْكَامُ الْقَتْلِ وَالتَّنْفِ ظُلْمًا وَعُدْوَانًا ، مِنْ جَرَّاءِ
السَّائِسِ وَالْمَوَامِرِ الَّتِي أَحْكَمَ تَدْبِيرَهَا أَعْدَاؤُهُمْ ، حَتَّى خُذِعَ الْقَضَاءُ
فِي أَمْرِهِمْ ، وَأَنْزَلَ بِهِمْ حُكْمَهُ الْجَائِرَ ؛ فَمَدَّهُمْ مُعَاوِزَهُمْ - ظُلْمًا -
فِي الْمَجْرِمِينَ وَالْأَشْرَارِ !

ورأيتُ جماعةً من ساقطي المروءة الأدياء ، قد رُفِعوا إلى أسمى
مناصبِ الدولة ، ووصلوا إلى ذروةِ المجد ، بأساليبَ يترفع عنها كلُّ
ماجدٍ شريفٍ سرى النفس !

وثمةُ أدركتُ حقائقَ كثيرٍ من الحوادثِ النامضة التي أذهشتِ
العالمَ وحيرتِ المؤرخين ، وبَلَّبتِ خواطرهم ، وتكشفت لي من
أسرارها ما لم يكن يخطر لأحدٍ على بالٍ .

وقد اعترف لي قائدٌ من قوَّار الجيوش أنه ظفِرَ بالانتصار - في
إحدى المارك - بفضلِ خطئه وغفلته وعدمِ تبصُّره ! وحدَّثني قائدٌ
آخرُ : أنه تحالف على خيانه وطنه وبيعته لأعدائه ، وأنه عرضَ أسطولَ
بلادِهِ غنيمةً باردةً لمدافعِ العدو ! ولكنَّ القدرَ عاكنه ، فاضطرَّ
جنوده إلى إطلاقِ مدافعهم على العدو ، وتمَّ له بذلك كسبُ المركة
على الرغمِ منه ، وسُكِّت في عيادِ الأبطال !

ورأيتُ كثيرًا من أفضالِ الرُعما الذين أسدَّوا أجلَ الخدماتِ
للعالم ، ووهَّبوا قُوَّتهم للخير ، وقد نسيهم التاريخُ ، وعفى عليهم ،
وأغفل أسماءهم إغفالاً .

٦ - جزاءُ الإخلاص

ورأيتُ شيخاً محزوناً مشردَّ الفكرِ ، وإلى جانبه فتى في مقتبلِ
شبابه لا يتجاوز الثامنةَ عشرةً من عمره ، فسألتُه عن مصدرِ أحزانه
ومبغضِ آلامِهِ ؛ فقصَّ على قصَّته المحزنة ، قال :

« إن هذا الفتى الذي تراه هو ولدي ، وقد قدَّنته في إحدى المارك ،
وقضى نحبه وهو يدافع عن الوطنِ إلى جاني .

وقد كنتُ قائدَ بارجةٍ حربيَّةٍ كبيرة ، وأبليتُ في محاربةِ العدوِّ
أحسنَ بلاء ، حتى هزمتُ الأعداءَ هزيمةً مُنكرةً . وقد كلَّفني ذلك
الانتصارُ ثمنًا غاليًا هو قتي هذا الفتى ، وكان وحيدى وسلوَّتى في
الحياة ! »

ثم بكى الرجلُ - متألِّمًا - واشتاقَ كلامه قائلاً :

« ولما وُضعتِ الحربُ أوزارها ، عدتُ إلى وطني ألتئمِسُ المكافأةَ
على ما قدَّمتُ لبلادي من خير ، وطلبتُ أن أُرَقَّى إلى منصبٍ قائدِ
الأسطولِ العامِّ الذي قُتِلَ في تلكِ المركة ؛ فلم يُسْمَعْ أحدٌ إلى كلامي ،

وآثروا بذلك المنصب الرفيع - الذي أَسَحَّجَهُ بجدارة - فتى في مُقْتَبَلِ
شبابه لا عهد له بِرُكُوبِ البَحَارِ ، وَخَوْضِ المَارِكِ ، ورأوا أَن الفِرَّ
المتنَّونَ الذي لا يصلحُ لشيءٍ في الحَيَاةِ أَجْدَرُ مِنِّي بِالرَّيَاسَةِ ، وأحقُّ
بالمُجْدِ . وإنما آثروا على هذا التي لأنه ابنُ جاريةٍ مُقَرَّبَةٍ مِن
الإمبراطورِ . فلما صَجِرْتُ بِالْقَبْرِ ، ورفضتُ غِلَامَتِي أَطْلُبُ إِنْصَافِي ،
غَضِبَ عَلَى أَوَّلُو الأَمْرِ ، واهتموني بِالْإِهْمَالِ وَالتَّغْصِيرِ في واجبي ،
وعاقبوني - على ذلك - أَشْنَعَ عِقَابِ .

فَاغْتَرَلْتُ العَالَمَ - منذُ ذَلِكَ اليَوْمِ - وَضَيِّتُ بَقِيَّةَ حَيَاتِي فِي
دَسَكِرَةِ صَغِيرَةٍ ، يبدو عن الحَاضِرَةِ ، وآثَرْتُ هَجَرَ النَّاسِ ، وَالبُعدَ
عن مكائِدِهِم وَأَحْادِمِهِ .

الفصل السادس

١ - عودةٌ « جلفسر »

وحان يومُ الرَّحِيلِ مِن جَزِيرَةِ السَّحَرَةِ ، فَاسْتَأْذَنْتُ الحاكمَ فِي
التَّوَدُّعِ مِن حَيْثُ أَتَيْتُ ، فَأُذِنَ لِي بِذَلِكَ . فَسَافَرْتُ مَعَ رَفِيقِي عَائِدِينَ

إِلَى « مالدونادا » ، وَبَقِينَا

بِهَا خَمْسَةَ عَشَرَ يَوْمًا

مُتَوَقِّعِينَ مَقْدَمَ السَّفِينَةِ

الْمَافِرَةِ إِلَى « لوجناب » .



وَحِينَ إِذَا حَلَّ مَوْعِدُ السَّفَرِ رَكِبْتُهَا بَعْدَ أَنْ زَوَّدَنِي رَفِيقَايَ وَأَصْحَابُهَا
بِكُلِّ مَا أحتاجُ إِلَيْهِ مِنَ الزَّادِ فِي تِلْكَ الرِّحْلَةِ .

وَلَبِثْنَا فِي السَّفِينَةِ شَهْرًا كَامِلًا ، وَهِيَ تَمُتُّ بِنَا عِبَابَ البَحْرِ ، ثُمَّ
كَلَبَتْ عَلَيْنَا عاصِفَةٌ هَوَاجَةٌ ؛ فَاضْطَرَرْنَا إِلَى تَحْوِيلِ السَّفِينَةِ صَوْبَ
الشَّمَالِ ؛ لِتُسَاعِدَنَا الرِّيحُ التَّجَارِيَّةُ الَّتِي تَهَبُّ فِي تِلْكَ الْجِهَةِ .

وفي اليوم الحادي والعشرين من أبريل عام ١٧٠٨م دأبنا ميناء « شونج » ، وأقْبنا راسي سفينتنا على بُعد ميلٍ منها بالقرب من أحد أنهارها الكبيرة ، ولَبْنَا نَرَقُبُ وصولَ الدليل . ولم يمضِ أَكْثَرُ من نصفِ ساعةٍ حتَّى قَدِمَ علينا دَيلان ، ثم سَعدَا إلى سفينتنا وسارا بها نحو الشاطئِ خِلالِ الصُّحُورِ الخَطِرَةِ المُنْبَثَّةِ في تلكِ الجَهَةِ ، حتَّى لَبَّيْنَا الشاطئَ آمِنِينَ .

٢ - كاتبُ الميناء

وسألنا الدَّيلان : من أين أَقْبنا ؟ فأجابهما أحدُ البَحرَةِ : « إِنَّا قادمون من مالوونادا . » ثم ذكر لهما أَنِّي سأبَحُ أَجَنِيَّ عَظِيمَ الخَطَرِ . وقد أساءَ إلى ذَلكِ البَحرُ أبلغَ إِساءَةٍ حينَ أَقْفَى إِلَيْهِمَا بِأَنِّي غَرِيبٌ عن تلكِ البلادِ . وما أدري : أَيُّ شَيْءٍ خَفَزهُ إلى أَن يُعْزِرَهُمَا بِذَلكِ ؟ ولَن يَمُدُّوا أَمْرَهُ أَحَدُ اأَحْمالينِ : فَإِذَا أَن يَكُونَ قد تَمَدَّ خِياتِي ، وَصَدَّ إلى إِيفَانِي ، وَإِذَا أَن يَكُونَ صَغيرَ النظرِ مَأْثُونُ الرَّأْيِ . وهو في كَلْبَتَا الحَاكَيْنِ مُسَيِّءٌ مُلُومٌ .

وما عَلِمَ الدَّيلانِ أَنِّي أَجَنِيٌّ عن البلادِ ، حتَّى أَقْفَى إلى كاتبِ الميناءِ بما سَمِعَهُ من البَحرِ ؛ فَصَبَرَ عَلَيَّ ، حتَّى إِذَا وَطِئْتُ قَدَمَايَ أَرْضَ المَدِينَةِ سَأَلَنِي عَنِ اسْمِي وَبَلَدِي ؛ فَصَصَّصْتُ عَلَيْهِ قِصَّتِي ، وَكَمَنْتُ عَنْهُ اسْمَ بَلَدِي ، وَتَظَاهَرْتُ أَمَاتَهُ بِأَنِّي رَجُلٌ هُولَنْدِيٌّ ، وَزَعَمْتُ أَنَّنِي قَدِمْتُ من « هولندة » قاصداً إلى اليابانِ .

وإِنَّمَا اضْطَرَرْتُ إلى تَلْفِيقِ هَذِهِ القِصَّةِ لِأَنَّنِي كُنْتُ أَعْرِفُ نَهِمَ لَا يَحْبُلُونَ في بلادهم غَيْرَ الهُولَنْدِيِّينَ !

وقصصْتُ على الكاتبِ أَنَّنِي كِدْتُ أُسَلِّكُ في عِبادِ التَّرَفُّقِ بِالْقُرْبِ من شاطئِ « بالنيارب » ؛ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَخَذَنِي مِنَ الرِّقِّ ، بَدَأَ أَنْ ظَلَمْتُ بِصَخْرَةٍ قَرِيبَةٍ مِنَ الشَّاطِئِ .

وذكرْتُ لَهُ مَرايَتَهُ في الجَزِيرَةِ الطَّيَّارَةِ مِنَ الجَنَابِ ، ثُمَّ خَتَمْتُ كَلَامِي ضَارِعاً إِلَيْهِ أَن يُسَهِّلَ لِي أَسْبَابَ السَّفَرِ إلى اليابانِ ، حَيْثُ أَتَجَرَّ مِنْهَا إلى بلادِي .

٣ - أَمْرٌ « جلفسر »

ولم أنته من قصتي وصراعتي ، حتى فاجأني الكاتب بأنه مضطراً إلى التمسك علي ، حتى يعرض أمري على الملك . ووعدي بأن يسرع في الكتابة إلى البلاط من قوَّره ، ولن يتأخر الردُّ أكثر من خمسة عشر يوماً .

ثم أمر الكاتب رجاله أن يودعوني في غرفة منفردة ، وأن يقيموا على بابها حارساً يراقبني حتى لا أهرب . وكان أمام هذه الحجرة حديقةٌ فسيحة ظلتُ أنزله فيها كلما أردتُ ، لأرقةً عن تقى الآلام الوحشة ، وأحزان العربة .

وزارني كثيرٌ من أهل البلاد ، وتسلكتهم الدهشة إذ رأوا أمامهم رجلاً قادمًا من بلادٍ سحيق لم يسمُّوا باسمه طول حياتهم . واضطرتُّ إلى استدعاء فتى من رفاقي في السفينة ، وهو من أهل « لوجناج » ، يُجيد لغة « الماونادا » ؛ لأنه قضى فيها سنواتٍ عدة ، فكان خيرَ ترجمانٍ بيني وبين كلٍّ من تفضل علي بالزيارة من أهل « لوجناج » ، وسئل على أسباب التحدث إليهم ، والإجابة عن أسئلتهم .

٤ - كتاب الملك

ولما حلَّ اليوم الخامس عشر ، جاء كتابُ الملك يأمر بأن أرسل إليه في عشرون من فرسانه يحرِّسوني حتى أمثل بين يديه . فاستعجبتُ ذلك الترجمان ، وما زلتُ سائرَين حتى اقتربنا من الحاضرة .

فبعثَ رفاقي رسولاً إلى الملك يسأله أن يفضِّل بتحديد الساعة التي يأذن لي أن أشرُفَ بالثول بين يديه فيها . وظلَّ رفاقي يدربوني على نظامهم العجيب في لقاء الملك يومين كاملين ، حتى مرَّنتُ على تقاليدهم ، وعرفتُ كيف أقبلُ سلمَ عرش الملك الرخامي ، وكيف أقابلُ جلالة وأنا أرخفُ على بطني ، وأزبلُ تراب الأرض بلساني .

ورأوا أن يسألوا لي أسباب اللقاء ، ويهوئوها علي ، لأنني أجنبي لم أتعود أمثال هذه التقاليد الشاذة ؛ فأمرُوا بقتل الأرض حتى لا يشايقني الشراب . وقد علمتُ - فيما بعد - أن هذا عطفٌ نادرٌ خصني به الملك ، وأفرَدني به ؛ فإن سراً

الدولة وعظماها لم يظفروا بمثل هذا المطفئ .

وكان من تقاليدهم ؛ أن يهيلوا التراب على الأرض إذا قديم أحد الأعداء ، أو المنضوب عليهم ؛ ليصطبروه إلى استئناف التراب .

وقد رأيت - ذات مرة - عظيماً من عظماء الدولة قد امتلأ فوه بالتراب ، فما وصل إلى العرش حتى استحال عليه أن ينيس بكلمة واحدة .

وقد أصبح في موقف حرج لا سبيل إلى الخروج منه ؛ فإن تقاليدهم لا تسمح لأحد من القاصدين أن يعصق أو يسمح فاه وهو مائل بين يدي الملك ، وهي تشكّل بمن يخالف ذلك أشد النكال .

• - معاقبة الأشراف

ولهذا الملك أسلوب غريب في التشكيل بكل من يحق عليه غضبه من أعيان الدولة وسراق المملكتهم ورجال الحاشية . فهو إذا أراد إهلاك أحد من هؤلاء لم يلجأ إلى منعه أو إحراقه أو قتله

بالسيف ، حتى لا يمتنن كرامته وشرفه بهذه القتل التي يقتل بها عامة شعبه !

بل يذبح لهؤلاء الأشراف وسيلة أخرى لإهلاكهم ، تبيزهم من سواد الشعب والدعاه . فهو يأمر أتباعه أن يلقوا على الأرض مسحوقاً - في مثل كون التراب - من السم الزعاف ، ثم يأمرهم باستدعاء ذلك العظيم إليه ؛ حتى إذا مثل في حضرة ، واضطرتته التقاليد إلى أن يستف التراب - وهو مختلط بذلك السم القاتل - حب في عروقه ديب الهلاك ، ومات في خلال أربع وعشرين ساعة . فإذا تم لهم ذلك كنفوا الأرض وغسلوها ؛ حتى لا يترص أحد من البراء للهلاك من بعده . وإذا قصر الخدم في ذلك حق عليهم العقاب الصارم .

وقد غفل - ذات مرة - أحد الظعان الذين ينط بهم تنظيف الأرض ، وقصر في غسلها ؛ فحدث أن عظيماً من عظماء الدولة راح سحبة هذا الإهمال ، وسرى السم في جسمه . فضيب لموته الملك وأمر بجعله السلام بالباطر عقاباً له على إهماله ، ثم دفنه الشفقة

والْحُنُوْ - بعد ذلك - إلى أَنْ يَصْفَحَ عَنْهُ ، وَيُعْفِيَهُ مِنَ الْعَدْوِ ، وَيَكْتُمِيْ
بِتَأْنِيهِ عَلَى تَقْصِيْرِ الشَّيْخِ .

٦ - فِي ضِيَاةِ الْمَلِكِ

ولما حان موعدُ مُتَوَلِّي بَيْنَ يَدَيْ جَلَالَتِهِ ، وَأَصْبَحَتْ عَلَى بُعْدِ أَرْبَعِ
حُطُوطٍ مِنَ الْعَرْشِ ، جَبَّتْ عَلَى رُكْبَتَيْ ، وَلَطَمَتْ الْأَرْضَ بِجَنَبَيْ
سَنَجٍ مَرَاتٍ ، ثُمَّ نَطَقَتْ بِجُمْلَةٍ لَقْنَتُهَا تَلْقِينًا - لِأَنِّي كُنْتُ أَجْهَلُ
لَتَتَمَّ - وَمَنَاهَا :

« فَلْيَعِشْ جَلَالَةُ الْمَلِكِ السَّمَاوِيِّ ، وَلْتُشْرِقْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ أَحَدَ عَشَرَ
قَرْنًا وَنِصْفَ قَرْنٍ ! »

فَرَدَّ الْمَلِكُ عَلَى تَحِيَّتِي بِكَلَامٍ لَمْ أَفْهَمْهُ : فَاسْتَأْنَفْتُ قَائِلًا - كَمَا
لَقْنْتُ - جُمْلَةً مَنَاهَا :

« إِنْ لَسَانِي عِنْدَ صَاحِبِي ! »

فَأَدْرَكَ الْمَلِكُ أَنِّي عَاجِزٌ عَنِ الْكَلَامِ بِلِسَتِهِ ، وَأَنِّي جَمَلْتُ تَرْجُمَانُو
وَسِيلَةَ التَّفَاهَمِ بَيْنَنَا .

فَأَمَرَ بِإِحْضَارِ ذَلِكَ الْفَتَى التَّرْجُمَانِ . وَظَلَّ يَسْأَلُنِي أَكْثَرَ مِنْ نِصْفِ
سَاعَةٍ ، وَأَنَا أَجِيبُهُ بِلُغَةٍ « بِالنِّيَابِ » فَيَنْقُلُ التَّرْجُمَانُ كَلَامِي إِلَى
لُغَةٍ « لَوَجْهَانِج » .



وَلَمْ يَنْتَهِ ذَلِكَ الْحِوَارُ حَتَّى أَعْجَبَ الْمَلِكُ ، جَدْبَتِي لِاعْتِبَابًا
شَدِيدًا ، وَأَمَرَ كَبِيرَ الْحَاشِيَةِ أَنْ يُعِدَّ لِي وَلِتَرْجُمَانِي مَكَانًا فِي قَصْرِه .

وَأَنْ يُنَى بِأَمْرِي ، وَيُنَحَّى فِي كُلِّ يَوْمٍ كَيْسًا مَمْلُوءًا بِالذَّهَبِ ؛ لِأَتَقَ مِنْهُ كَمَا أَشَاءُ وَفَقَّ مَا يَحُلُو لِي .

وَبَقِيَْتُ عَلَى هَذِهِ الْحَالِ ثَلَاثَةَ أَشْهُرٍ ، وَقَدْ عَمَّرَتْنِي الْمَلِكُ بِطَفْنِهِ ، وَلَمْ يَأَلُ جُهِدًا فِي إِرْسَائِي وَالتَّحَبُّبِ إِلَيَّ ؛ رَغْبَةً مِنْهُ فِي أَنْ يَسْتَبْقِيَنِي عِنْدَهُ طَوْلَ حَيَاتِي .

وَلَكِنِّي لَمْ أَسْتَطِعِ الْبَقَاءَ طَوِيلًا ؛ فَقَدْ لَجَّ بِي الشَّوْقُ إِلَى رُؤْيَةِ بَلَدِي وَفَضَاءِ بَقِيَّةِ أَيَّامِ حَيَاتِي بَيْنَ زَوْجَتِي وَأَوْلَادِي .

الفصل السابع

١ - أَهْلُ « لُونَجَانج »



أَهْلُ « لُونَجَانج » - كَاعَرَفْتُهُمْ - شَعْبٌ مَوْفُورُ الْأَدَبِ ، عَظِيمُ الشَّهَامَةِ - شَأْنُ كُلِّ شَعْبٍ شَرْقِيٍّ - وَرُبَّمَا أَخَذْتُ عَلَى أَفْرَادِهِ شَيْئًا مِنْ الزُّهْوِ وَالْإِعْتِدَادِ بِنَفْسِهِ . وَهُمْ يَنْمُرُونَ صُبُوفَهُمُ الْأَجَانِبَ بِحُبِّهِمْ وَإِجْلَالِهِمْ ، وَلَا سَيِّمًا إِذَا ظَفِرَ هَوْلَاءُ الصُّبُوفِ بِمُطَفِّهِ مَلِكِ الْبِلَادِ ، وَأَسَابُوا مَنْزِلًا مَحْوُطًا بِرِغَايَةِ جَلَالَتِهِ .

وَقَدْ عَرَفْتُ كَثِيرًا مِنْ سِرِّهِ هَذَا الْقَطْرِ وَأَعْيَانِهِ ، وَتَبَادَلْتُ وَلِيَّامَ أَحَادِيثَ مَجِيبَةً نَافِعَةً . وَقَدْ يَسَّرَ لِي أَسْبَابَ الْحِوَارِ مَعَهُمْ تَرْجُمَانِي الَّذِي صَحِبْتُهُ مَعِيَ فِي رِحْلَتِي إِلَى « لُونَجَانج » .

٢ - المخلدون

وكان أعجب ما سمعته - في تلك البلاد - حديث بعض رفاقي
عن جماعة المخلدين ، فقد سألتني أحد أصدقائي :

« ألم تر المخلدين في بلادنا ؟ »

فجبت من سؤاله أشد

العجب ، وسأته مدهوشا :

« وهل في الدنيا خالدة ؟

وكيف يكتب الخلود

لأحد من بني الإنسان ؟

وكيف السبيل إلى رؤية

أولئك المخلدين ؟ »

فقال لي :

« عندنا فئة قليلة من

رجال المخلدين ، وهم غاية في الندرة ، وقاما يولد أحد من المخلدين



إلا في فترات متباعدة من الزمن . ولهم شارة يوسمون بها - منذ
ولادتهم - فإذا ولد طفل ، ورأيت على حاجبيه اليسرى بتهة حمراء
مستديرة ، أدركت أنه من المخلدين . فهذه السمة دليل على أن هذا
الطفل لن يموت . ولا يزيد حجم الوشم عن حجم القرش ، ثم
يكبر ويتغير لونه تبعا لسن صاحبه .



فإذا بلغ الثانية عشرة من عمره
اخضر لون الوشم ، ومتى وصل

إلى العشرين اشتعال إلى الزرقاة ،

فإذا بلغ الأربعين أصبح لونه حالك

السواد ، واتسع حجمه حتى أصبح

في مثل استدارة « الشلبي » . ومتى بلغ الإنسان هذه السن ثبت

لون الوشم وجسمه ؛ فلا يتغير إلى الأبد .

ثم اشتأنف كلامه قائلا :

« وكلما تجد واحدا في جنبته تلك السمة ، لأن عدد هؤلاء

الناس - كما قلت لك - ضئيل جدا بالقياس إلى جمهرة الأهلين ،

وليس يزيدُ عددُ الخالدين - في بلادنا كلها - على مائتين وألفٍ من ذُكُورٍ وإناثٍ ، وليس في حاضرنا هذه من الخالدين والخالديات أكثرُ من خمسين ، وقد وُلِدَتْ طفلةٌ منذُ ثلاثِ سنواتٍ على جَبَّتَيْهَا سِمَةُ الْخُلُودِ .

وربما حَسِبْتَ أن أولئك الخالدين وَقَفَ على بعضِ الأسر . وليس الأمرُ كذلك ؛ فإن كلَّ أسرةٍ عرضةٌ لِأَن يُولَدَ فيها الخالدون ، وم يُولَدُونَ مصادفةً وكما اتَّفَقَ . ومنَ الشائعِ المألوفِ أن يَلِدَ الخالِدُونَ أبناءَ فارينَ ، وأن يُنْجِبَ القانونُ أبناءَ خالدينَ ١ .

٣ - دهشة جعفر

كان هذا الرجلُ - لحسنِ حظي - يعرفُ لغةَ « بالتيارب » التي تعلمُها وأصبحتُ أُحَدِّثُ التحدُّثَ بها . وكان يَقُصُّ عليَّ هذا الحديثَ الشائقَ المُعْجِبَ بتلكِ اللغةِ ؛ فلم تَقْنِ كلمةٌ واحدةٌ منه ، وتملكني العَجَبُ ، وتماظمتني الحيرةُ ممَّا قال ، وكادت أذُنَاي تَشْكُكُانِ فيما تسمعان . واشتدَّ إعجابي وعِظمتي بهؤلاء المخلدين ، فقلتُ لصاحبي :

« يا لَكُمْ من أمةٍ موفورةٍ السادةِ ؛ فإنَّ كلَّ مولودٍ فيها خَلِيقٌ أن يُوَمِّلَ في الخلودِ . وأنى أُمْنِيَّةٌ حبيبةٌ إلى قسٍ بَنَى الإنسانَ أكبرُ من أن يكونَ خالداً مُخَلِّداً على الدَّعْرِ ، يَمْرُحُ في حياةٍ بلا رَدَى ، ويُلْقِنُ ذَرَارِيهَ الْحِكْمَةَ والمِرَّةَ ! »

لقد خَلَصْتُ حياةَ هؤلاء الخالدين - بلا شكٍّ - من الشنصباتِ والآلامِ ، وصَفَتُ مِنَ الْأَدْرَانِ وَالْأَكْدَارِ ، وَرَفَّتْ عَقُولُهُمْ مِنْ جَالِبَاتِ الْهُومِ وَالْأَحْزَانِ . ولا رَيْبَ أَنَّهُمْ طَرَحُوا - وراءَ ظُهُورِهِمْ - اليأسَ والقنوطَ ، وسَلِمَتْ قُلُوبُهُمْ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُبْنِ ، بد أن أصبحوا لا يَخْذَرُونَ الْمَوْتَ ولا يَرْهَبُونَ الْقَتْلَ . فهل يُتَأَمَّلُ لي أن أَظْفَرَ بِرُؤْيَا واحدٍ من هؤلاء السُّعَدَاءِ الْخَالِدِينَ ؟ وكيف خَلَا بِلَاطُ الْمَلِكِ مِنْهُمْ ؟ فما أذكرُ أني رأيتُ سِمَةَ الْخُلُودِ على جَبَّتَيْ أَحَدٍ من رجالِ العاشيةِ ، ولورأيتها لاسْتَرْعَتِ انتباهي .

وما أدري : كيف أَغْفَلَ الْمَلِكُ ذَلِكَ ، وهو - فيما رأيتُ - عاقلٌ حكيمٌ ، بعيدُ النَّظَرِ ، سَدِيدُ الرَّأْيِ ؟ وعجيبٌ أَلَّا يَسْتَوَزرَ واحداً مِنْهُمْ أَوْ يَتَخَذَهُ له سَمِيحاً ؛ فَيَكُونُ له تِقَافاً يَرشُدُ به رأيه ، ويستقيمُ

- يَمْشُورَتِهِ - مُلْكُهُ . لِذَلِكَ إِخْلَاصِي وَحِي لَجَلَالَتِهِ لِيَجْتَمِعَانِ عَلَى أَنْ أَكْشِفَهُ بِهِذِهِ التَّصْبِيحَةِ . فَإِذَا آتَى أَنْ يَأْخُذَ بِهَا ، فَلَنْ أُضَيِّعَ هَذِهِ الْفُرْصَةَ الْتَادِرَةَ الَّتِي أَنَا حَالِي لِي اللَّهُ لَا أَقْضَى بَقِيَّةَ حَيَاتِي بَيْنَ هَؤُلَاءِ الْأَطْهَارِ الْخَالِدِينَ . وَإِنِّي لِأَدْعُو اللَّهَ - جَاهِدًا - أَنْ يَسْرُتُوا قَبْلِي بَيْنَهُمْ عَشِيرًا ، وَيَرْضَوْنِي - فِي زُمْرَتِهِمْ - صَاحِبًا مُسْتَشِيرًا .

٤ - أَحْلَامُ جِلْفَر

وَكَانَ صَاحِبِي يُنَمِّتُ إِلَى حَدِيثِي ، وَعَلَى فِيمَ ابْتِسَامَةٌ تَكْتَفُ عَنْ اقْتِنَاعِهِ بِفِي مَا أَقُولُ . وَلَمَّا انْتَهَيْتُ مِنْ كَلَامِي ، رَغِبَ إِلَيَّ أَنْ أَسْمَحَ لَهُ بِتَرْجُمَةٍ حَدِيثِي لِرِفَاقَتِهِ ؛ فَأَذِنْتُ لَهُ . وَلَمْ يُنِمَّ تَرْجُمَتُهُ حَتَّى دَارَ بَيْنَهُمْ جَوَازٌ طَوِيلٌ لَمْ أَفْهَمْ مِنْهُ كَلِمَةً وَاحِدَةً ، وَلَكِنِّي عَلِمْتُ - فِيمَا بَدَأَ - أَنَّهُمْ عَجِبُوا مِمَّا سَمِعُوهُ أَشَدَّ الْعَجَبِ !

ثُمَّ قَالَ لِي صَاحِبِي :

إِنْ صَحَّحْتَهُ قَدْ ابْتَهَجُوا بِمَا سَمِعُوهُ مِنَ الْآرَاءِ الطَّرِيقَةِ الَّتِي ذَكَرْتُهَا لَهُ وَلَكِنَّهُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يَسْرُتُوا رَأْيِي فِي مَزَايَا الْخُلُودِ وَسَادَةِ الْخَالِدِينَ ،

وَمِنْ يَسْأَلُونَنِي : مَاذَا أَسْنَعُ إِذَا قُدِّرَ لِي أَنْ أَكُونَ مِنَ الْخَالِدِينَ ؟ وَأَيُّ سَبِيلٍ أَنَهَجُهُ إِذَا كَتَبْتُ لِي تِلْكَ السَّعَادَةُ ؟

فَقُلْتُ لَهُ :

« لَقَدْ أَحْسَنْتَ إِلَيَّ بِهَذَا السُّؤَالِ ، فَقَدْ شَغَلَتْنِي أَحْلَامُ الْخُلُودِ حَتَّى تَمَنَيْتُ أَنْ أَشْكَلَ فِي زُمْرَةِ هَؤُلَاءِ الْأَطْهَارِ . وَلَوْ كُتِبَ لِي هَذَا الشَّرَفُ الْعَظِيمُ ، لَكَانَ أَكْبَرَ مَا يَنْبَغِي أَنْ أَعِيشَ غَنِيًّا مَوْفُورَ الشَّرَاوِ . وَلَنْ أَعِدِمَ وَسِيلَةَ الْغِنَى ؛ فَإِنَّ الْقَصْدَ فِي الْعَيْشِ ، وَالْأَمَانَةَ وَالِاسْتِقَامَةَ سَتُبَلِّغُنِي هَذِهِ الْغَايَةَ . وَلَنْ أُبْلُغَ الْمَائَتِينَ حَتَّى أُصِلَ بِهِذِهِ الْخِلَالِ التَّيْلِقَةَ إِلَى مَوْفُورِ الْغِنَى .

وَلَنْ أَتْرِكَ فُرْصَةً تَمُرُّ - مِنْذُ طُلُوعِي - إِلَّا ائْتَهَرْتُهَا فِي مَوَاسِلَةِ الدَّرْسِ وَالتَّحْصِيلِ ، حَتَّى أَصْبَحَ أَحْكَمَ رَجُلٍ فِي الْعَالَمِ . وَلَنْ يَقُومَنِي أَنْ أَبْدَلَ جُلًّا عِنَايِي فِي تَدْوِينِ أَحْدَاثِ التَّارِيخِ الْخَطِيرَةِ ، وَاسْتِخْلَاصِ وَجُوهِ الْعَبَرِ فِيهَا ، وَمُرَاقَبَةِ الدُّوَلِ فِي أَدْوَارِ رِفْعَتِهَا وَخُفُوفِهَا ، وَسُمُوفِهَا وَانْطِطَاعِهَا ، وَالتَّأَمُّلِ فِي أَسْبَابِ نَسَبِهَا وَشَفَائِهَا ، وَتَسْجِيلِ أَخْلَاقِهَا وَتَزَوَّاتِهَا . وَأَثَرِ ذَلِكَ فِي رُقِيِّهَا وَتَدَهُّورِهَا . وَسَأَحْرِصُ عَلَى

دَرْسِ شَرَائِعِهَا وَنُظُمِهَا دَرْسًا مُسْتَضِيًّا ، وَأَتَرَفُ - عَنْ كَثِيرٍ -
آثَارَ اللَّهِ وَتَوَاقِيَةَ التَّرَفِ فِي أَبْنَائِهَا .

وَسَيَتَدِينِي الدَّرْسُ وَالتَّجَارِبُ إِلَى الرُّشْدِ وَالْحِكْمَةِ ، وَأُصْبِحُ
- بِفَضْلِ مَا أُورِثْتُهُ مِنَ الْعِلْمِ وَالْخَيْرَةِ وَالْمَعْرِفَةِ - قَائِدَ أُمَمٍ ، وَوَخِي
رَشَادِهَا ، وَرَائِدَ تَوْفِيقِهَا ، وَرَسُولَ هِدَايَتِهَا .

وَسَأَتَخَيَّرُ اثْنَيْ عَشَرَ رَفِيقًا مِنَ الْخَالِدِينَ ، آتَسُّ بِهِمْ وَأُنَادِيهِمْ ،
وَأَتَهَدِّمُ بِالرَّعَايَةِ وَالْمِنَايَةِ ، وَأَتَدْمُ بِالْمَالِ كُلَّمَا اخْتَلَجُوا إِلَيْهِ ، وَأَدْعُوهُمْ
إِلَى مَا نَدُو لِيَبْتَرَكُونِي فِي طِمَاسٍ كُلِّ يَوْمٍ ، ثُمَّ أُطِيلُ التَّأَمُّلَ فِي
ذَرَارِيهِمْ ، وَأُشْهَدُ آبَاءَهُمْ يَمُوتُونَ وَأَبْنَاءَهُمْ يَخْلُقُونَهُمْ ؛ فَأَرَى فِي ذَلِكَ مَنْظَرًا
عَجَبًا ، وَيُمَثِّلُ لِي أَنَّنِي بَشَرٌ يَتَأَمَّلُ فِي حَدِيثِهِ ، وَيَرَى فِيهَا أَلْوَانَ
الْأَزْهَارِ وَهِيَ تَزْدَهَرُ وَتَذْبُلُ ، ثُمَّ تَعُودُ إِلَيْهَا فَتَقْرُنُهَا مَرَّةً أُخْرَى .

وَسَيَكُونُ حَدِيثِي مَعَ الْخَالِدِينَ - مِنْ أَثْنَالِي - حَدِيثًا نَافِعًا يَمُودُ
عَلَى الْإِنْسَانِيَّةِ بِالْغَيْرِ الْمُسْبِيهِ ؛ لِأَنَّا سَنَعْرِفُ كَيْفَ نُدُونُ مَذَكِّرَاتِنَا عَنِ
الْقُرُونِ الْخَالِيَةِ ، وَمَا أَصَابَ الْجِنْسَ الْإِنْسَانِيَّ مِنْ وِيْلَاتٍ وَتَكَلُّبَاتٍ
بِسَبَبِ تَهَوُّرِهِ وَطَيْفِئِهِ وَحَمَاقَتِهِ ؛ فَتَصِفُ الدَّوَاءَ لِجَسَمِ الدَّاءِ ، وَلَا تَأَلُّو

جُهْدًا فِي إِرْشَادِ النَّاسِ إِلَى طَرَائِقِ الرُّشْدِ وَالسَّادِ ، لِنُنْقِذَهُمْ مِنْ
جَالِبَاتِ الشَّقَاةِ وَالتَّذَهُورِ .

...

وَمِنَ الْمَبَاهِجِ وَالشَّعْرِ الَّتِي أَظْفَرُ بِهَا - إِذَا كُتِبَ لِيَ الْخُلُودُ -
أَنَّهُ أَهْجَ قَسَى وَفِكَرَى بِمَا أَرَاهُ مِنْ قَلْبٍ حَالَاتِ الدُّوَلِ ، وَمَا أَشْهَدُهُ
مِنْ أَطْوَارِهَا ؛ فَأَرَى كَيْفَ تَسْتَحِيلُ الْمَدُنُ الْعَامِرَةُ إِلَى يَبَابٍ قَفَرٍ ،
وَكَيْفَ تَسْتَبِيدُ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَزِينَتَهَا ، وَتَبْلِسُ التَّقَارُّ الْمَوْجِئَةُ ثِيَابَ
الْعِمْرَانِ ، وَتُصْبِحُ حَوَاضِرُ أَهْلِهَا بِالسَّكَنِ ، مُزْدَهَرَةً بِالرَّيَاضِ النُّضِيرَةِ ،
فَيَتَحَدَّثُهَا الْمُلُوكُ مُقَامًا لَهُمْ ، وَكَيْفَ تَسْتَحِيلُ الْأَنْهَارُ إِلَى عُذْرَانٍ
لَا خَطَرَ لَهَا ، وَكَيْفَ تَرَحَّلُ السَّعَادَةُ عَنْ قَطْرِ لَحْلٍ فِي قَطْرِ آخَرٍ ،
وَكَيْفَ تَشَقُّ الْمَدُنُ وَتَسْعَدُ كَمَا يَشَقُّ أَهْلُهَا وَيَسْعَدُونَ . وَكَيْفَ تَتَعَاقَبُ
عَلَى الشُّعُوبِ أَدْوَارٌ مُخْتَلِفَةٌ مِنَ الْجَهْلِ وَالْعِلْمِ ، قَسُودُ الْهَمَجِيَّةِ بِلَادًا
مَتْحَضَرَةً كَانَتْ رَمَزًا لِلرُّعْصَةِ وَالْمَجْدِ ، وَمِنَارًا لِلْمَعْرِفَةِ وَالْحِكْمَةِ ،
وَتَضَحَّرُ بِلَادٌ أُخْرَى ، وَتُثَبِّقُ مِنْ سُبَاتِهَا وَتَسْتَرِدُّ سَابِقَ مَجْدِهَا وَتَالِدَ

فصلها ، ويُصبحُ أهلُها سادةً أعزَّةً قديرينَ في الأرضِ ، بعدَ أن كانوا عبيداً أدلةً مُمتنعينَ .

٥ - شقاء المخلدين

ولم أُنقِ من حديثي حتَّى ترجمهُ صاحبي إلى رِفاقهِ ؛ فلم يمالكوا أن يمجَّجوا ويدهشوا مما سَمِعوه ، وشاعتُ الإبتساماتُ على شفاههم . وقد التمسوا إلى المُدَرِّ في حَقِّي ، لجهلي بما يلقاهُ المخلدون في بلادهم من ألوانِ المذابِ وأفانينِ الشقاء التي لا تدور بخاطرِ غريبٍ أجنبيٍّ عنهم ، لأنَّهُ لم يشهدْها عن كُتُبٍ . ثم طلبوا إلى صاحبي أن يريلَ اللبَسَ ، ويظهرَني على حقيقةِ أمرهم ، ويَقِنَني على ما يكابِدُهُ الخالدينَ في بلادهم من ألوانِ الأذى والشقاء . فقال لي مُتَجَبِّبًا :

« إلى أليسَ لك المُدَرِّ فيما ذهبتَ إليه من آراءِ بيدي عن الصوابِ ؛ فإنَّ الناسَ - في غيرِ هذه البلادِ - يحملونَ بالخلودِ في الدنيا ويمدِّونه أشهى أُمْنِيَةٍ . ولو رأَوْا ما يلقاهُ الخالدونَ عندنا من النَّعاسةِ

والآلَمِ ، لما نزعَهم أنفُسُهم إلى الخلودِ ، ولا فكروا فيه ، ولأسجَ الخلودُ أبغضَ شيءٍ إليهم . وقد زرتُ بلادَ « اليابان » ؛ فرأيتُ أهلَها يتحدثونَ عن الخالدينَ في



بلادنا ، ويغشُّونهم على السادةِ الوهميةِ التي يتخيَّلونها ويؤمنونَ لو قسمها اللهُ لهم ؛ وأكثرُ الناسِ يدهشونَ لهذه الحقيقةِ ؛ لأنهم يرونَ أن البقاءَ في الدنيا هو غايةُ

ما تقبُّبو نَفْسُهم إلى تحقيقه ؛ فهم يَجْرَعُونَ من الموتِ ، ويُحيُونَ الحياةَ حُبًّا جَمًّا . وليس أدلُّ على ذلكُ مما سَمِعناه منك . ولو لا وجودُ المخلدينَ في بلادنا ، وما رأيناهُ بأَعْيُننا من شَقَوَهم ونعاسيتهم ، لما خالفناكَ في رأيِكَ ؛ فإنكَ تحدثنا بسعادةٍ خياليةٍ لا وجودَ لها إلا في عالمِ الوهمِ ، وكأننا حسبنا أن الخالدينَ يَقضُونَ حياةً قَنِيَّةً ، مَوْسُولَةً

الشباب، متجددة القوة، لا يعتوزها مرض، ولا تُدركها شيخوخة.
وهذه أمانةٌ بيدهُ المالِ.

إِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ يَهُيُونَ الْأَجَلَ، ويخشون الموتَ؛ فإذا كُتِبَ
لَهُمُ الْخُلُودُ - كما كُتِبَ لَهُوْلَامُ الَّذِينَ أُخْذَتْ عَنْهُمْ - تمنوا الموتَ،
ورأوا فيه أكبرَ راحةٍ من آلامهم وأمراضهم، فإن المخلدين عندنا
يَظْلُكُونَ أَمْيَاحًا؛ حتى إذا بَلَغُوا الثَّلَاثِينَ مِنْ أَعْمَارِهِمْ سَارُوا فِي طَرِيقِهِمْ
الطَّيِّبَةِ إِلَى الشَّيْخُوخَةِ. ومَنْ بَلَغُوا الثَّمَانِينَ أَسْلَمَتْهُمْ الشَّيْخُوخَةُ إِلَى
الضَّعْفِ وَالْعَجْزِ، وربما أَسْلَمَتْهُمْ إِلَى الْهَيْئَةِ وَالْجُنُونِ؛ فيَقْضُونَ حَيَاةَ
مُنْقَصَةٍ لَا تَنْتَعِي، وَيَمُوتُونَ - مِنْ آلامِ الْهَرَمِ - مَا يَمُوتُونَ، وَلَا يَجِدُونَ
سَلْوَى يَتَمَرَّضُونَ بِهَا فِي الْحَيَاةِ - حينئذٍ - لأنَّهُمْ يَرَوْنَ أَقْسَمَ فِي
غُرْبَةٍ عَمَّنْ يَكْتَنِفُهُمْ مِنَ النَّاسِ، بَدَأَ أَنْ مَاتَ أَهْلُ جِيلِهِمْ، وَقَفَى
مُضْطَرِّوهُمْ. وَيَقْلُكُونَ طَوْلَ حَيَاتِهِمْ فِي تَلَجُّجٍ وَعِنَادٍ، وَهَمٍّ وَغَضَبٍ،
وَتَرْتُّوهُ مُضْجِرَةً، وَلَهْفَةً مُضْغِبَةً عَلَى أَيَّامِ الشَّبَابِ الْقَاهِيَةِ، تَنَاقُلُ
صُدُورُهُمْ حَسْرَةً، إِذْ يَرَوْنَ جِرْمَانَهُمْ وَعَجْزَهُمْ عَنْ مُشَارَكَةِ الْأَحْيَاءِ فِي
مَبَاهِجِهِمْ وَأَفْرَاجِهِمْ. ثُمَّ تَزْدَادُ آلَامُهُمْ كُلَّمَا شَيَّعُوا جَنَازَةً، وَيَلْمَعُونَ

حُظْمُهُمُ التَّيْسَ الَّذِي أَبِي عَلَيْهِمْ أَنْ يَظْفَرُوا بِلَدْنِ الْمَوْتِ، وَيَمْسُوا
بِرَاحِهِ الْأَبْدِيَّةِ. وَلَا تَزَالُ ذَاكَرُهُمْ تَقْتَحِلُ حَتَّى تَلْسَى كُلُّ شَيْءٍ،
وَلَا تَبْقَى فِي أَذْنَانِهِمْ إِلَّا أَخْلَاطُ مُضْطَرِبَةٍ مِنَ الذَّاكِرَاتِ، وَأَشْتَاتُ
مُبْتَدَأَةٍ مُتَنَاقِضَةٍ مِمَّا حَفِظُوهُ فِي شَبَابِهِمْ.

عَلَى أَنْ سَوَادَهُمْ يَفْقِدُ ذَاكَرَتَهُ قَدَانًا تَامًا، وَيَحُلُّ بِهِ الْهَيْئَةُ،
فَيَصْبِحُ أَحَقُّ إِنْسَانٍ بِالرَّحْمَةِ وَالْإِسْفَاقِ.

فَإِذَا تَزَوَّجَ خَالَهُ مِنْ خَالَتِهِ فَلَنْ يَزِيدَ أَمَدُ زَوَاجِهِمَا عَلَى سِنِّ الثَّمَانِينَ،
ثُمَّ تَنْفَصِمُ عَرَى الزَّوْجِ - كَمَا قَضَى بِذَلِكَ شَرَائِعُ بِلَادِنَا - مَتَى
وَسَلَ أَصْفَرُ الزَّوْجَيْنِ إِلَى هَذِهِ السَّنَةِ.

عَلَى أَنَّ بَعْضَ الثَّمَانَةِ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْخُلُودُ - عَلَى الرَّغْمِ
مِنْهُمْ - يُؤَثِّرُونَ أَنْ يَتَزَوَّجُوا مِنْ فَانِيَاتٍ غَيْرِ خَالِدَاتٍ، حَتَّى لَا يَزِيدُوا
حَيَاتَهُمْ تَسَاعَةً وَشَقَاعَةً. وَمَتَى بَلَغَ الْخَالِدُ سِنَّ الثَّمَانِينَ اعْتَبَرَتْهُ شَرَائِعُنَا
فِي عِدَادِ الْأَمْوَاتِ، وَأُذِنَتْ لَوَرَثَتِهِ فِي الْإِسْتِيْلَاءِ عَلَى أَمْلاكِهِ، وَلَمْ
تَسْمَحْ لَهُ الشَّرَائِعُ بِأَكْثَرَ مِمَّا يَكْفُلُ لَهُ الْقُوَّةُ.

أَمَّا الْفُقَرَاءُ مِنَ الْخَالِدِينَ، فَإِنَّ الْجُمْهُورَ يَمُوتُهُمْ؛ لأنَّهُمْ لَا يَسْتَطِيعُونَ

أَنْ يَسْمُوكُمْ عَمَلًا فِي الْحَيَاةِ ، وَلَا يَقْبَلُ الْقَضَاءُ شَهَادَتَهُمْ . وَمَتَى وَصَلَ
الْخَالِدُ إِلَى التَّسْمِينِ سَقَطَتْ أَسْنَانُهُ ، وَفُضَّ قُوَّةُ ؛ فَلَا يَشْعُرُ بِلَذَّةِ الطَّعَامِ



وَالشَّرَابِ ، وَتَنَابَهَ الْأَمْرَاضُ
وَالنَّاسَاغَاتُ وَالْمَلَأُ ، وَنَفَسَى
أَسْمَاءُ أَصْدِقَائِهِ وَخُلَصَائِهِ ،
وَيَعِجْزُ عَنِ الْقِرَاءَةِ ؛ لِأَنَّ
ذَاكِرَتَهُ لَا تَبْقَى - فِي تِلْكَ
السَّنَةِ - حَرْفًا مِنْ حُرُوفِ

الهِجَاءِ ، بَلَّغَ جُمْلَةً مِنَ الْجُمْلِ . وَثَمَّةٌ يَرُونَ أَنْفُسَهُمْ غُرَبَاءَ فِي الْقَرْنِ
التَّالِي ، وَيَعِجْزُونَ عَنْ فَهْمِ مُحَدَّثِيهِمْ عَجْزًا تَامًا ؛ لِأَنَّ لَفْظًا فِي تَصْيِيرِ
وَتَبْدِيلِ دَائِمَيْنِ ؛ فَلَا يَنْقُضِي عَلَيْهَا قَرْنٌ كَامِلٌ حَتَّى تَتَغَيَّرَ أَلْفَاظُهَا
تَصْيِيرًا يَكَادُ يَكُونُ تَامًا .

٦ - حَدِيثُ الْمَخْلَدِينَ

وَأَرَادَ مُحَدَّثِي أَنْ يُنَبِّئَ لِي صَدَقَ قَوْلُهُ ؛ فَأَرَانِي سِتَّةَ رِجَالٍ مِنْ

الْمَخْلَدِينَ تَخَفَّوَتْ أَسْنَانُهُمْ ، وَلَا يَقِلُّ أَصْفَرُهُمْ عَنْ مِائَتَيْ عَامٍ . فَلَمَّا
رَأَيْتُهُمْ عَجِبتُ مِنْهُمْ أَشَدَّ الْعَجَبِ ، وَرَتَبْتُ لِحَالِهِمْ . قَدْ أَخْبِرُهُمْ
مُحَدَّثِي أَنِّي سَأَلْتُ كَثِيرًا ؛ فَلَمْ يَجِبْ كَلَامَهُ وَاحِدٌ مِنْهُمْ ، وَلَمْ يُجَاوِبْ أَنْ
يُوجِبَهُ إِلَى سُؤَالِي ، وَاسْتَحْضَرُوا بَطْلَانِي تَذَكَّرْتُ مِنْي ؛ فَفَتَحْتُهُمْ مَا طَلِبُوهُ .
وَأَمَّا لُجُؤًا إِلَى هَذِهِ الطَّرِيقَةِ فِي طَلِبِ الْإِحْسَانِ مُضْطَرِكِينَ ؛ لِأَنَّ الْحُكْمَةَ
تَحَرَّمُ أَنْ يَحْتَرِفَ الشَّحَافَةُ أَحَدٌ مِنَ الشَّعْبِ ، بَعْدَ أَنْ كَفَلَتْ لِلْعَجْزَةِ
أَقْوَاتَهُمْ ، وَإِنْ كَانَ مَا تُعْجِزُهُ عَلَيْهِمْ مِنَ الْأَرْزَاقِ غَايَةً فِي النَّفَاقَةِ .

وَقَدْ رَأَيْتُ الشَّعْبَ يَنْفَرُ مِنْ رُؤْيَا الْخَالِدِينَ ، وَيَحْتَقِرُّهُمْ وَيُفْضِضُهُمْ
وَيَعُدُّ كُلَّ مَوْلُودٍ مِنْهُمْ نَذِيرَ سُوءٍ وَخَرَابٍ . وَقَدْ عُثِيتِ الْحُكُومَةُ
بِتَسْجِيلِ تَارِيخِ وَلَادَتِهِمْ فِي دِفَاطِرٍ بَعِيْنَا . عَلَى أَنْ تَوَارِيخَ هَذِهِ السَّجَلَاتِ
لَا يَزِيدُ عَلَى أَلْفِ عَامٍ ، وَقَدْ تَلَفَ بَعْضُهَا بِسَبَبِ الْإِهْمَالِ أَوْ الْحَرِيقِ
أَوْ الثَّوَرَةِ . وَثَمَّةٌ طَرَفَةٌ أُخْرَى يَشْتَرِقُونَ بِهَا أَعْمَارَ الْخَالِدِينَ ، وَهِيَ
أَنْ يَسْأَلُوا الْخَالِدَ عَنْ يَذْكُرُهُ مِنَ الْمُلُوكِ وَالْمُظْلَمَاءِ ، فَإِذَا ذَكَرَ اسْمَ
وَاحِدٍ مِنْهُمْ ، عَرَفُوا أَنَّهُ قَدْ بَلَغَ سَنَ الثَّمَانِينَ فِي عَهْدِهِ .

وَلَمْ أَرَ أَوْلَئِكَ الْمَخْلَدِينَ حَتَّى تَأَلَّمْتُ لَهُمْ أَشَدَّ الْأَلَمِ ،

وَحَجَلْتُ مِنْ نَفْسِي أَشَدَّ الْخَجَلِ فِيمَا ذَهَبْتُ إِلَيْهِ مِنْ حُبِّ الْبَقَاءِ وَالرَّغْبَةِ
فِي الْخُلُودِ ، وَرَأَيْتُ أَنَّ كُلَّ مَا تَمَثَّلَ لِي مِنْ حَيَاةِ الْخَالِدِينَ خَطَأٌ وَوَهْمٌ
بِيدَانِ كُلِّ الثُّبَدِ عَنِ الْحَقِيقَةِ ، وَرَأَيْتُ فِي الْمَوْتِ مُخَلَّصًا وَمُنْقَذًا
مِنْ هَذِهِ الْأَلَامِ الْمُضْغِنَةِ الشَّرِّحَةِ !

وَأَيُّ مَنْظَرٍ أَدْعَى لِلرَّثَاوِ وَالشَّفَقَةِ مِنْ أَنْ تَرَى شُيُوخًا قَانِينَ ،
أَبْصَارَهُمْ زَائِمَةٌ حَارَّةٌ ، وَوُجُوهُهُمْ آيَةٌ مِنْ آيَاتِ الدَّمَامَةِ وَالْقَبْحِ ،
تَجْمَعُ إِلَى التَّشْوِيعِ شُحُوبًا مَفْرَعًا ؟ وَتَتَنَازَرُ نِسَاؤُهُمْ مِنْ رَجَالِهِمْ بِأَنَّهُنَّ
أَشَدُّ قُبْحًا وَأَكْثَرُ دَمَامَةً . وَكَأَنَّمَا أَتَقَلَّبْتُ السُّنُونَ كَوَاهِلَ الْمَخْلُوقِ
فَجَبَلْتُهُمْ يَنْوَدُونَ بِحَمْلِهَا ، وَأَصْبَحُوا أَقْرَبَ إِلَيَّ أَنْ يَكُونُوا أَشْبَاحًا غَائِبَةً ،
وَأَطْيَافًا زَائِلَةً ، مِنْهُمْ إِلَيَّ أَنْ يَكُونُوا أَنَاسِي وَأَحْيَاءَ يُحْسِنُونَ وَيَتَمَرُّونَ .

٧ - حِكْمَةُ الْمُتَرَعِّينَ

وَلَمَّا عَلِمَ الْمَلِكُ بِمَا دَارَ بَيْنِي وَبَيْنَ رِفَاقِي مِنْ حَدِيثٍ ، اسْتَدْعَانِي
إِلَيْهِ ، وَسَأَلَنِي عَنْ رَأْيِي فِيمَا سَمِعْتُ مِنْ أَحَادِيثِ هَذِهِ الْقَتْرِ الشَّقِيَّةِ
التَّائِسَةِ ؛ فَأَنْصَبْتُ إِلَيْهِ بِكُلِّ مَا دَارَ فِي نَفْسِي مِنَ الْأَرَارِ الَّتِي أَسْلَفْتُهَا

لِلْقَارِي ، فَأَقْرَأَ عَلَيْهَا مُبَيَّنًا ، وَأَحَبُّ أَنْ يُرْسِلَ اثْنَيْنِ مِنَ الْخَالِدِينَ
إِلَى بِلَادِي ، وَلَكِنَّ شَرِيعَةَ الْبِلَادِ وَقَعَتْ حَائِلًا دُونَ تَحْقِيقِ
هَذِهِ الْأَمْنِيَّةِ .

وَلَقَدْ بَدَتْ لِي حِكْمَةُ الْمَشْرِعِينَ فِي جِرْمَانِ الْمَخْلُوقِ مِنْ قُرَوَاتِهِمْ
- بَمَدَّ سِنِ الثَّمَانِينَ - وَرَأَيْتُ فِي ذَلِكَ أَصَالَةً وَبُعْدَ نَظَرٍ . وَلَوْلَا
هَذَا الْحَرَمَانُ لَأَسْتَوَى الْمَخْلُوقُونَ عَلَى أَسْلَافِ الْوَلَدَةِ كُلِّهَا ، وَاسْتَحْوَذُوا
عَلَى ثَرَوَةِ الْبِلَادِ ، وَهُمْ عَاجِزُونَ عَنْ تَشْعِيرِ مَالِهِمْ وَتَنْمِيتِهِ .

وَلَا مَعْدَى لِلْبِلَادِ عَنْ أَنْ تَكُنَّ ذَلِكَ كُلَّهُ إِلَى أَيْدِي الشَّبَابِ الْقَادِرِينَ
عَلَى الْعَمَلِ ، وَلَوْلَا هَذَا الْقَيْدُ لَكُنَّ الْخَرَابُ وَسَادَ الْإِهْلَاسُ .

مُؤَلَّفَاتِهِمْ وَأَسْفَارِهِمْ - إِلَى تِلْكَ النَّقْطَةِ ؛ فَالْهَم - فِيمَا أَعْرِفُ - أَهْلُ
تَحْقِيقٍ وَجِدَةٍ وَفَهْمٍ .

وَلَقَدْ أَلَحَّ عَلَى مَلِكِ «لُوجَنَاج» أَنْ أَتِيَ فِي بِلَادِهِ ، وَعَرَضَ عَلَى
مَنْصِبِي عَالِيًا فِي بِلَادِهِ ؛ فَاسْتَعَدَّتْ مِنْ عَدَمِ قَبُولِهِ . وَلَمَّا رَأَى إِسْرَارِي
عَلَى التَّوَفُّعِ إِلَى بِلَادِي ، أَذِنَ لِي فِي السَّفَرِ ، بَعْدَ أَنْ أَهْدَيْتُ إِلَيْهِ مِنْ
قِطْعِ الذَّهَبِ أَرْبَعًا وَأَرْبَعِينَ ، وَأَرْبَعِينَ ، كَمَا أَهْدَيْتُ إِلَى قِطْعَةٍ
كَبِيرَةٍ حَمْرًا مِنَ الْمَاسِ ، وَقَدْ بَعَثْتُ حِينَ عُدْتُ إِلَى «إِنْجِلِيَا» بِنَائِدَ
وَأَقْبَرِ مِنَ الْجُنُبَاتِ . وَتَفَضَّلَ جَلَالُهُ فَكَتَبَ بِخَطِّهِ إِلَى إِمْبَرَاطُورِ
«الْيَابَانِ» كِتَابًا يُوصِيهِ بِي . وَكَانَ هَذَا الْكِتَابُ أَثْمَنَ مِنْ كُلِّ مَا
أَعْطَانِيهِ مِنَ الْهَدَايَا وَالطَّرَفِ ؛ لِأَنَّهُ يَسِّرُ لِي سَبِيلَ الْوُدُوعِ إِلَى بِلَادِي .

٢ - فِي بِلَادِ «الْيَابَانِ»

وَفِي الْيَوْمِ السَّادِسِ مِنْ يُونْيُو عَامِ ١٧٠٩مَ مَتَلَّتْ بَيْنَ يَدَيَّ مَلِكِ
«لُوجَنَاج» - فِي إِحْتِرَامِهِ وَأَدْبِهِ - وَاسْتَأْذَنَتْنِي فِي السَّفَرِ إِلَى بِلَادِي ؛
فَأَذِنَ لِي - وَهُوَ يَأْتَسِفُ عَلَى فِرَاقِي - ثُمَّ وَدَّعْتُ أَسْدَقَائِي الَّذِينَ
عَرَفْتُهُمْ فِي تِلْكَ الْبِلَادِ ..

الفصل الثامن

١ - هَدَايَا مَلِكِ «لُوجَنَاج»



أَعَلَّ الْقَارِئُ قَدْ دَهَشَ مِمَّا سَمِعَهُ مِنْ حَدِيثِ الْمُخَلِّينَ . وَمَا
أَظُنُّهُ قَدْ سَمِعَ هَذَا الْحَدِيثَ الطَّوِيلَ ، أَوْ ارْتَابَ فِي صِدْقِهِ ؛ فَإِنَّ فِي
قُدْرَةِ أَيِّ سَائِحٍ أَنْ يَنْهَبَ مِنْ «الْيَابَانِ» إِلَى «لُوجَنَاج» ، وَيَتَحَقَّقَ
- بِنَفْسِهِ - صِدْقَ مَا رَوَيْتُهُ لَهُ .

وَلَقَدْ سَافَرْتُ مِنْ «لُوجَنَاج» إِلَى «الْيَابَانِ» ، وَحَاولْتُ أَنْ أَعْرِفَ
رَأْيَ الْيَابَانِيِّينَ فِي أَوْلَئِكَ الْغَالِذِينَ ؛ وَلَكِنْ جَهِلْتُ تِلْكَ اللُّغَةَ وَقَصَرَ
الْوَقْتُ الَّذِي قَضَيْتُهُ فِي بِلَادِ «الْيَابَانِ» ؛ حَالًا دُونَ تَعَرُّفِي شَيْءٍ
مِنْ ذَلِكَ .

وَأَكْثَرُ الظَّنِّ أَنَّ كِتَابَ «الْيَابَانِ» لَمْ يُغْفَلُوا الْإِشَارَةَ - فِي

وأمر جلالةُ الملكِ أن يكونَ وداعِي رَسِيًّا باخْتِالٍ راضٍ ؛
فأحاطتْ بِى جَمُهرَةٌ من حَرَسِ جَلالَتِهِ حتى الميناءَ الواقعةَ في الجنوبِ
الترقي من تلكَ الجزيرةِ .

ثم أبحرتْ بنا السَّفِينَةُ - بعدَ سِتَّةِ أيامٍ - إلى «اليابان» .
وما زالتْ سائِرَةً بنا - وهى تَمُخَّرُ حُجَابَ البَحْرِ - حتى بَلَغْنَا
«اليابانَ» بعدَ ثَلَاثِ وخَمْسِينَ يَوْمًا .

ولمَّا وصلتْ إلى الميناءِ ، أخرجتْ كِتَابَ ملكِ «لوجنجان» .
ولم يَرَهُ ضَبَّاطُ الميناءِ حتى أَحْسَنُوا لِقائِي ، وعاملُونى كما
يُعاملُونَ الوُزَرَ والأُمراءَ ، وأَعَدُّوا لى مَرَكَبَةً أَقْلَتْنى إلى القصرِ
الإمبراطورى ، حيثُ شَرَفْتُ بِالمَقُولِ بين يَدَيِ الإمبراطورِ ،
ورَفَعْتُ إِلَيْهِ كِتَابَ ملكِ «لوجنجان» ؛ فَرَحَّبَ بى ، وأَكْرَمَنِ أَحْسَنَ
إِكْرَامٍ ، ثم أَمَرَ تَرْجُمَانَهُ أَنْ يَسْأَلْنى عَمَّا أَطْلُبُهُ ، قُلْتُ لَهُ :

ليس لى أُمْنِيَّةٌ أَكْبَرُ من أن يَفْضَلَ جَلالَتُهُ ، فيأمرَ بَعْضَ
أَتباعِهِ أن يَسْهَلُوا لى أَشْبابِ العُدُوِّ إلى بِلادِى .
ثم ذَكَرْتُ لَهُ أَننى تاجِرٌ هولَنْدِيٌّ ، أَشْرَفْتُ على الفَرَقِ ، وَلَقِيتُ

الأهوالَ حتى وصلتْ إلى «لوجنجان» . ثم أبحرتْ مِنْهَا إلى «اليابان» .
ولم أَكُنْ أَجْهَلُ أَنَّ الهولَنْدِيِّينَ يَتَجَرَّوْنَ مع اليابَانِيِّينَ ، وَأَنَّ الشُّقْنَ
التَّجَارِيَّةَ لا يَكَادُ يَنْقَطِعُ سَبِيحًا بَيْنَ التَّمَلُّكَاتَيْنِ .

٣ - العودةُ إلى الوطن

فلم يَحْبِبْ جَلالَةُ الإمبراطورِ رِجائِي ، وأمرَ بَعْضَ ضَبَّاطِهِ أَنْ
يُسَهِّلَ لى أَشْبابَ السَّفَرِ ، وَيُوصِيَّ بِى رُبَّانَ السَّفِينَةِ .

ولما جاءَ اليومُ التاسعُ من شهرِ يونيُو عامِ ١٧٠٩م وصلتْ إلى
«ناجازاكي» - بدسَفَرٍ شاقٍّ مُتَعَبٍ - فَلَقِيتُ جَماعَةً مِنَ الهولَنْدِيِّينَ
على أَهْبَةِ السَّفَرِ إلى «أَسِتِرْدَام» حيثُ يُموَدُّونَ لى أَوطانِهِمْ .
فصَحِبْتُهُمْ - فى سَفَرِهِمْ - بعدَ أَنْ أَوْهَمْتُهُمْ أَننى هولَنْدِيٌّ مِثْلَهُمْ ،
وَكُنْتُ عَنْهُمْ حَقِيقَةً أُمَرى .

وأردتُ أَنْ أُعْطِيَ رُبَّانَ السَّفِينَةِ أَجْرَ السَّفَرِ ، وَلَكِنه - حينَ عَلمَ
أَننى طَيْبٌ جَرَّاحٌ - اكْتَفَى بِنَفْسِهِ الأَجْرِ ، على أَنَّ أَطْطَبَ المَرَضَى فى
أثناءِ الرِّحْلَةِ . وما زالتِ السَّفِينَةُ تَمُخَّرُ بنا حُجَابَ البَحْرِ ، حتى بَلَغْنَا رَأْسَ

الرجاء الصالح ؛ فزودنا من العام ، ثم استأنفنا السير .

وفي اليوم العاشر من أبريل عام ١٧١٠م بلغنا «أمسندام» ، وقد مات من رفاقنا - في أثناء تلك الرحلة المضنية الطويلة -

ثلاثة رجال ؛ بعد أن ألق عليهم السم والمرض ، وهوى رابع من أعلى السارية بالقرب من شواطئ «غانة» ؛ فاضت روحه ، وابتلته الأمواج ؛ فلم نغتر له على أمر .

ولما بلغنا «أمسندام» أبحرنا - من فورى - إلى «إنجليرا»

على سفينة صغيرة ؛ فوصلت إلى «دون» في اليوم السادس عشر من شهر أبريل . ثم ذهب إلى بيتي في اليوم التالي ، فلبثتني زوجي وولداي وقد نملكهم السرور والفرح بعودتي سالما ، بعد أن غيب عنهم عاما ونصف عام .

الرحلة الرابعة

جلفر في جزيرة الجباد الناطقة



مكتبة الكيلاني

تحية من كراء وزوا القرية والتعليم مرتبة أساطير على الحروف المسطانية .

... وهكذا تبعت - بأستد - في أن تعجب إلى الأطفال مكتبتهم وقهرتهم بالمطالعة^(١) . ولين أدرك الأطفال - رياض الأطفال - مراداً مبدئياً ، لقد فتحت لهم - مكتبة الأطفال - فتحاً جديداً . أدركت أرب نفوسهم ، وأبدتهم أننا من عبوسهم ، وعبثت لسماع أسواقهم ، وحسنت لغتهم وأخلاقهم^(٢) . والأستاذ الكيلاني مثير مكتبة الأطفال أدب عالمي جدير بما يهدف إليه من تبلي الأغراض^(٣) . وإنه ليسرني - إذ أتابع مع التقدير هذا الجهد النبلي للتواصل - أن ألا حظ بقدر العناية التي تبذلونها في هذا السبيل ، والقائدة التي تسود على الشئ منه ، بنهضة أذهان الأطفال وغفلهم لتشكل خير الأفكار والسمات ، وتقديساً لهم على مثل هذه الشؤون الطريفة^(٤) . فافهم بكافك على ما قد تفرغ لفرصة من روائع أدب ، ضيف إلى كسرها كنوزاً^(٥) . وإنني وقد تبعت هذا المشهود القيم المتفعل لا يسكن إلا الإعجاب بما تسامون به في سد نقص يشتر به جميع الآباء في قلب أطفالهم^(٦) . فشكر الله لك ما هدفت إليه من تشييع العقل مشوب الشغف بالقرأة والدرس ، مؤفراً لقط من متاع الفكر ، مستغنياً القارئ عن نهج البيان^(٧) . فعي تنسج مع طابع العقل الشرقي وغرائزه حتى يفرغ . وتجعل الصلقة متصلة بين المدرسة والبيت في قصص سارية تأسر مع غيرة العقل وتقليده ويسته وما يهوى حماقة أو تبيل لوعيه ، بأشوب صحيح فصيح ، إذا حيلة السهل صديراً غمماً كبيراً^(٨) . ومن ثم ينسب العقل ، وقد تحت تلكته . وأشررت القصص فكرته^(٩) .

- | | | |
|---------------------|----------------------|------------------------|
| (١) أحمد لطفي السيد | (٢) أحمد نجيب اللؤلؤ | (٣) جفرول |
| (٤) علي ناصر | (٥) محمد المصطفى | (٦) محمد بن هرون بركات |
| (٧) عبد توفيق رست | (٨) محمد علي جسي | (٩) محمد علي طوبة |